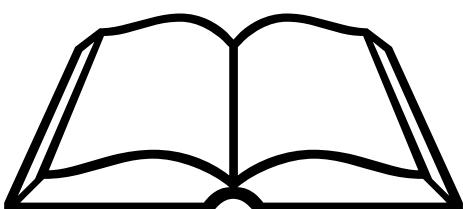


المحصل في شرح ثلاثة الأصول

الأصول

آخر نسخة ١٤٣٨ هـ

عبدالله محمد الجوني



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يُلْيِقُ بِحَلَالِهِ، وَعَظِيمَتْهُ .

وَأَشْهَدُ أَنَّا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ، صَلَّى

اللَّهُمَّ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلهِ، وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالْتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ

..... أَمَّا بَعْدُ :

فهذا شرح مختصر موجز على الرسالة المفيدة للإمام : محمد بن عبد الوهاب - رحمه

الله - المسماة [ثلاثة الأصول] حررت فيه على إ يصل مقصود الشيخ ، وإيضاح بعض

عباراته ، وقد جانت فيه الإسهاب والتطويل إلا عند الحاجة ، وذلك لأن هذه

الرسالة تفهم من قراءتها لوضوح معناها ، وسهولة الفاظها ، وقد وسمت هذا

الشرح [المحصل في شرم ثلاثة الأصول] .

أَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَنْفَعَ بِهِ، وَأَنْ يَجْزِي الشَّيْخَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ .

وَصَلَّى اللَّهُمَّ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلهِ، وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

نبذة موجزة عن الرسالة :

تسمى هذه الرسالة بـ (**الأصول الثلاثة**) وتسمى بـ (**ثلاثة الأصول**) وهو المشهور^(١).

وتدور هذه الرسالة الصغيرة حول الأمور التي يُسأل عنها الإنسان في قبره ، وهي (من ربك ، وما دينك ، ومن نبيك) .

وتميز هذه الرسالة بعدة ميزات :

١. سهولة الأسلوب ، ووضوح العبارة ، فهي واضحة المعنى ، لا تحتاج إلى كثير شرح ، ولذا كانت تقرأ في المساجد على عوام الناس ، فيفهمون محتواها بدون شرح^(٢) .

٢. حسن التصنيف ، والترتيب ، والتدرج مع القارئ ، ومن ذلك :

أ. الإجمال ثم التفصيل : فهو يجعل أولاً بعض المسائل ثم يفصلها .

كما في قوله (فإذا قيل لك : ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها ؟ فقل : معرفة العبد ربها ، ودينه ، ونبيه ﷺ) ثم تكلم عن هذه الأصول بالتفصيل .

ب. إيصال المعلومة بطريقة السؤال والجواب ، وهو من الأساليب النافعة جداً في ضبط المعلومة ، وهو أسلوب نبوي كما في كثير من الأحاديث ، ومنها قوله ﷺ (أخرروني بشجرة تشبه ، أو كالرجل المسلم لا يتحاث ورقها ...) متفق عليه ، وقوله ﷺ (هل تدرؤن ماذا قال ربكم ...) متفق عليه

٣. الإكثار من الأدلة ، فلا يكاد يذكر مسألة إلا ويدلل عليها .

وهذه الميزة عامة في مؤلفات الشيخ ، وهذا هو الذي جعل البركة والقوة في هذه الدعوة المباركة ، فالخبر ، والبركة ، والعلم ، والصلاح كله في كتاب الله تعالى ، وفي سنة رسول الله ﷺ .

(١) وبعضهم يجعلهما رسالتان ، ولا يظهر ذلك ، لأن الشيخ من عادته التركيز على المضمن ، وتكراره بالفاظ عدة متقاربة ، وهذا معروف لمن يطالع مصنفات الشيخ رحمة الله ، والله أعلم .

(٢) يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمة الله : ومن الحكمة في تعليم العوام وإرشادهم أن يُعلموا ما يحتاجونه بالفاظ وعبارات مناسبة لأذهانهم ، قريبة من أفهمهم ، فهذا فيه نفع كبير .

محتويات الرسالة :

يمكن أن نجعل هذه الرسالة المفيدة ثلاثة أقسام :

القسم الأول : تمهيد : فقبل أن يشرع الشيخ في الكلام عن الأصول الثلاثة قدم بثلاث رسائل ، تمهيداً للموضوع .

القسم الثاني : صلب الموضوع : ويتكلم عن الأصول الثلاثة إجمالاً ، وتفصيلاً .

القسم الثالث : ضمنه مسائل متفرقة ، مثل كفر من كذب بالبعث ، وبيان أن جميع الرسل جاءوا بالدعوة إلى التوحيد ، والكفر بالطاغوت ، وذكر رؤوس الطواغيت .

تبنيه : ذكر غير واحد من أهل العلم أن المقدمات الثلاثة في أول الرسالة ليست من وضع الشيخ ، وإنما وضعها بعض طلاب

الشيخ ، وأن كلام الشيخ يبدأ من قوله : (فإذا قيل لك : ما الأصول الثلاثة ...)^(١) .

قال الشيخ عبد الحسن القاسم حفظه الله عند شرحه لقول الشيخ (فإذا قيل لك : ما الأصول الثلاثة ...) : هذه بداية رسالة

ثلاثة الأصول ، وما سبقها هي رسائل متفرقة للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، وضعها بعض تلامذته قبل ثلاثة

الأصول كالتقدمة لها ، كما حدثني بذلك الوالد ، والشيخ صالح بن غصون رحمهما الله أ.هـ

- ولأهمية هذه الأصول الثلاثة نجد أن الشيخ يذكرها في عدد من رسائله ، بأساليب وألفاظ مختلفة^(٢) .

(١) وبعضهم يجعل كلام الشيخ يبدأ من الرسالة الثالثة (اعلم أرشدك الله لطاعته ...) .

ومراد من قال ذلك : أن هذه الرسائل من كلام الشيخ ، لكن لم يضعها مع هذه الرسالة ، وإنما وضعها هنا بعض تلامذة الشيخ ، وهذا كلام محتمل ، والله أعلم .

وان كان بعض الشرح نص على أن بعض هذه الرسائل ليست من كلام الشيخ .

لكن الذي يعرف كلام الشيخ رحمه الله يجد في هذه الكلمات نفسه وأسلوبه ، فهي من وضعه والله أعلم ، وقد نص عليها في بعض رسائله ، كما في دلائل التوحيد وغيرها .

(٢) وانظر على سبيل المثال (مجموعة التوحيد) ص ١٥ وما بعدها ، وص ٦٠ وما بعدها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل :

الأولى : العلم ، وهو معرفة الله ، ومعرفة نبيه ، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة .

الثانية : العمل به .

الثالثة : الدعوة إليه .

الرابعة : الصبر على الأذى فيه .

والدليل قوله تعالى : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَالْعَصْرِ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّيْرِ ﴾ .

قال الشافعي رحمه الله تعالى : لو ما أنزل الله حجةً على خلقه إلا هذه السورة لكتفهم .

وقال البخاري رحمه الله : باب : العلم قبل القول ، والعمل .

والدليل قوله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فبدأ بالعلم قبل القول ، والعمل .

هذه هي الرسالة الأولى من التمهيد .

وخلالصتها : وجوب تعلم الأربع مسائل المذكورة ، وذكر الدليل على ذلك .

قوله [بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] .

درج المصنفون من أهل العلم على البدء بالبسملة في مصنفاتهم ، وذلك لعدة أمور :

١. اقتداءً بكتاب الله عز وجل . حيث افتتح بالبسملة .

٢. تأسياً بسنة المرسلين ، فقد كان ﷺ يبدأ رسائله بالبسملة ، كما في حديث هرقل في الصحيحين ، وكما في صلح الحديبية.

وقال تعالى عن رسالة سليمان إلى بلقيس ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

٣. فعل الصحابة رضوان الله عليهم ، ومن ذلك ما جاء في صحيح البخاري ثامة بن عبد الله بن أنيس أن أنساً حدثه أن أبي بكر كتب له هذا الكتاب لما وجهه إلى البحرين : (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) هذه فريضة الصدقة التي فرض رسول الله ﷺ على المسلمين ...) ثم ذكر مقدار الصدقة .

٤. طريقة العلماء في مؤلفاتهم : قال ابن عبد البر : قال بعضهم : يجب على كل شارع في التصنيف أربعة أمور : البسمة ، والحمدلة ، والصلوة على النبي ﷺ ، والتشهد^(١) .

وقال ابن حجر في فتح الباري : وقد استقر عمل الأئمة المصنفين على افتتاح كتب العلم بالبسمة ، وكذا معظم كتب الرسائل أ.هـ

وأما حديث (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر) فقال عنه الشيخ الألباني : ضعيف جداً^(٢) .

وكذلك حديث (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع) وفي رواية (بحمد الله) وفي رواية (بالحمد) وفي رواية (فهو أجذم) ضعفه الألباني . وانظر إرثاء الغليل ج ١ ص ٢٩ .

(١) ليس المراد الوجوب الشرعي ، بل من حيث الصناعة والتأليف .

(٢) وقد حسن الحديث ابن الصلاح ، والنوي .

قوله [أعلم] .

هذه الكلمة يؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة التي ينبغي للسامع ، والقارئ أن يصغي إلى ما يُلقى إليه بعدها .

قال الشيخ حافظ حكمي : هذه الكلمة يؤتى بها للاهتمام ، والبحث على تدبر ما بعدها .

وما قرره المصنف هنا من أصول الدين حقيق بأن يهتم به غاية الاهتمام . قاله ابن قاسم في حاشيته .

قوله [رحمك الله] .

هذه الجملة فيها تلطف ، ولين ، والدعاء بالرحمة معناه : غفر الله لك ما مضى ، وعصمتك فيما يستقبل ، فتشمل المغفرة أيضاً ، لأنها أفردت ، أما إذا جمعاً كانت المغفرة لما مضى ، والرحمة لما يستقبل .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : كثيراً ما يجمع المصنف رحمه الله بين الدعاء للطالب مع ما قرره ووضحه ، وهذا من حسن مسلكه ، ومحبته ، ورحمته بال المسلمين أ.هـ

وهذا أسلوب دعوي جيد ، وهو يشمل جانبين :

١. جانب اللفظ : فلابد للداعي أن يتخير الألفاظ المناسبة التي تشرح صدر المدعو للدعوة ، كما قال عليهما معاذ : يا معاذ : والله إني لأحبك ، والله إني لأحبك ، أو صيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول : اللهم أعني على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك . رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وصححه الألباني .

وقال عليهما معاذ عبد الله بن عمر : نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم الليل . متفق عليه ، وغير ذلك من الأحاديث .

٢. جانب القصد : فلابد للداعي حتى يكون ناجحاً أن يكون همه إنقاذ الناس من النار ، وأن يكون حريصاً على إرادة الخير لهم .

جاء من حديث أنس رضي الله عنه ، قال : كان غلام يهودي يخدم النبي عليهما معاذ فمرض ، فأتاه النبي عليهما معاذ يعوده ، فقدع عند رأسه ، فقال له : أسلم . فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له : أطع أبي القاسم عليهما فأسلم ، فخرج النبي عليهما معاذ وهو يقول : الحمد لله الذي أنقذه من النار . رواه البخاري

والسؤال المهم هنا : ماذا يستفيد النبي عليهما معاذ من هذا الغلام الذي هو على سرير الموت ؟

هل هو لتكتير سواد المسلمين ، أو الاستفادة منه في الجهاد ، أو الدعوة ، أو التعليم ، أو غير ذلك .

والجواب (الحمد لله الذي أنقذه من النار) هذه هي غاية الداعي الأساس .

قوله [أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل] .

^(١) قوله [الأولى] : العلم ، وهو معرفة الله ، ومعرفة نبيه ، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة [١] .

قال المصنف في بعض رسائله : اعلم أن طلب العلم فريضة ، وأنه شفاء للقلوب المريضة ، وأن أهم ما على العبد معرفة دينه ، الذي معرفته ، والعمل به سبب لدخول الجنة ، والجهل به وإضاعته سبب لدخول النار ، أعاذنا الله منها أ.هـ
والعلم الشرعي من أعظم العبادات ، وأجل القربات ، قال الرهري : ما عَبَدَ اللَّهُ بِشَيْءٍ أَفْضَلُ مِنَ الْعِلْمِ .
والمراد هنا هو العلم الشرعي ، وكل علم مُدح في الكتاب والسنة ، وأثني على أهله فالمراد به العلم الشرعي .

وقد قال عليه السلام: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين . متفق عليه ولذا فتحصيل العلم توفيق من الله عز وجل لمن شاء من عباده .

قال ابن القيم : والعلم يدخل قلب كل موفق من غير بواب ولا استئذان
ويرده المحروم من خذلانه لا تشقنا اللهم بالخذلان

والعلم أنفس ما اشتغل به العبد ، قيل لسفيان الثوري : إلى متى تطلب الحديث ؟ قال : وأي خير أنا فيه خير من الحديث فأصير إليه .

وقال الرحيبي في منظومته الرحيبة : علماً بأن العلم خير ما سعي فيه وأولى ما له العبد دعوي وينبغي أخذ العلم ديانة ، وقربة ، فالعلم لا يؤخذ ثقافة ، أو هواية ، أو للتکثر به ، والتزين به في المجالس ، فعن سفيان الثوري قال : زينوا العلم بأنفسكم ، ولا تزينوا بالعلم .

وعن حبيب بن عبيد قال : تعلموا العلم ، واعقلوه ، وانتفعوا به ، ولا تعلموا لتجملوا به ، فإنه يوشك إن طال بكم العمر أن يتحمل بالعلم كما يتتحمل الرجل بيته .

وبتحصيل العلم يسلم الإنسان من الفتنة ، خاصة عند شدة التباسها ، فصاحب العلم صاحب بصيرة ، وهدى ، لا تختلط عليه الأمور ، ولا يقع في موج الفتنة التي تتقاذف بالناس يمنة ، ويسرة .

يقول ابن القيم : فإن الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ما أزاله يقينه ، ولا قدحت فيه شكاً ، لأنه قد راسخ في العلم ، فلا تستفزه الشبهات ، بل إذا وردت عليه ردها حرسُ العلم وجيشه مغلولة مغلوبة أ.هـ
وما أجمل ما قال ابن القيم رحمه الله : فما خراب العالم إلا بالجهل ، ولا عمارته إلا بالعلم ، وإذا ظهر العلم في بلد ، أو محله قلل الشر في أهلها ، وإذا خفي العلم هناك ظهر الشر ، والفساد .

(١) فائدة: عرف المصنف هنا العلم بالمعرفة ، وقد اختلف العلماء : هل العلم يرادف المعرفة أم لا ، وهل يصح أن يوصف الله بالمعرفة أم لا .

والحق أن العلم لا يرافق المعرفة ، والقاعدة أن كل كلمتين في اللغة العربية تختلف في مبنها لا يمكن أن تكون مطابقة للأخرى من كل وجه (كالقعود والجلوس ، والإيتان والنجيء ، مثلاً) .

وقد اختللت عبارات العلماء في تعريف العلم . قال ابن حجر في الفتح : وقد أنكر بن العربي في شرح الترمذى على من تصدى لتعريف العلم ، وقال : هو أبين من أن يبين . قلت : وهذه طريقة الغزالي ، وشيخه الإمام أن العلم لا يجد لوضوحة ، أو لعسره .

والكلام عن فضل العلم وأهله كلام يطول يرجع إليه في مظانه ، وقد أفرد له العلماء قدیماً ، وحديثاً مصنفات .

مسألة : ذكر المصنف هنا أن العلم واجب ، والحق أن العلم النافع ^(١) منه ما هو واجب يأثم الإنسان بجهله ، ومنه ما هو مستحب ، وفرض كفاية يحسن تعلمه ، ولا يأثم بتركه إذا علمه من تحصل الكفاية به .

وضابط العلم الواجب : كل ما لا يتم الواجب إلا به .

قال الإمام أحمد : يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه ، قيل له : مثل أي شيء ؟ قال : الذي لا يسعه جهله : صلاته وصيامه ، ونحو ذلك أ.هـ

وهذا العلم مختلف باختلاف الأشخاص ، فقد يكون واجباً على شخص دون آخر ، فالفقير مثلاً لا يجب عليه تعلم أحكام الزكاة ، ولا الحج ، ولا كثير من مسائل البيوع ، ولكن يستحب له ذلك .

وعليه نلاحظ أن ما ذكره المؤلف هنا بقوله (وهو معرفة الله ، ومعرفة رسوله ، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة) يدخل في العلم الواجب العيني ، بل هو من أوجب الواجبات ، ويأتي التفصيل في هذه الأمور إن شاء الله ^(٢) .

فائدة : روی عن النبي ﷺ أنه قال : طلب العلم فريضة على كل مسلم . رواه ابن ماجه ، وغيره . وهذا الحديث له طرق كثيرة كلها لا تخلو من مقال .

قال ابن عبد البر : هذا حديث يروى عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة كلها معلولة لا حجة في شيء منها عند أهل العلم بالحديث من جهة الإسناد .

وقال السيوطي : جمعت له خمسين طریقاً ، وحكمت بصحته لغيره ، ولم أصحح حديثاً لم أسبق إلى تصحيحه سواه . وقد حسنه بعض أهل العلم بمجموع طرقه ، قال الألباني : إن طرقه يقوى بعضها بعضاً ، بل أحدها حسن ، فالحديث بمجموع ذلك صحيح بلا ريب عندي .

تنبيه : قال السخاوي : قد الحق بعض المصنفين باخر هذا الحديث (وسلمة) وليس لها ذكر في شيء من طرقه ، وإن كان معناها صحيحاً .

(١) وأما العلم الضار فيحرم تعلمه ، كتعلم السحر وعلومه ، وتعلم الفلسفة لغير حاجة ، وتعلم الموسيقى ، ونحو ذلك .

(٢) وقد ذكر ابن تيمية في كتاب الاستقامة أنواع تعلم العلم ، فقال : من العلم مالا يؤمر به الشخص نوعاً ، أو عيناً ، إما لأنه لا منفعة فيه له ، لأنه يمنعه عمما ينفعه ، وقد ينبع عنه إذا كان فيه مضره له ، وذلك أن من العلم مالا يحمله عقل الإنسان فيضره ، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : حدثنا الناس بما يعروفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتخبون أن يكذب الله ورسوله .

وقال عبد الله بن مسعود : ما من رجل يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقوبهم إلا كان فتنة لبعضهم .

ومن الكلام ما يسمى علمأً وهو جهل ، مثل كثير من علوم الفلسفة ، وأهل الكلام ، والأحاديث الموضوعة ، والتقليد الفاسد ، وأحكام النجوم ، وهذا روي أن من العلم جهلاً ، ومن القول عياً ، ومن البيان سحراً .

ومن العلم ما يضر بعض النفوس لاستعمالتها به على أغراضها الفاسدة ، فيكون بمثابة السلاح للمحارب ، والمثال للفاجر .

ومنه ما لا منفعة فيه لعلوم الخلق ، مثل معرفة دقائق الفلك ، وثوابه ، وتوباه ، وحركة كل كوكب ، فإنه بمثابة حرکات التغيير عندنا .

ومنه ما يصد عما يحتاج إليه ، فإن الإنسان يحتاج إلى بعض العلوم ، وإلى أعمال واجبة ، فإذا اشتغل بما لا يحتاج إليه عمما يحتاج إليه كان مذموماً .

فيمثل هذه الوجوه يذم العلم بكونه ليس عملاً فيحقيقة ، وإن سعاد أصحابه وغيرهم عملاً ، وهذا كثير جداً .

أو يكون الإنسان يعجز عن حمله ، أو يدعوه وبعینه على ما يضره ، أو يمنعه عمما ينفعه .

وقد يكون في حق الإنسان لا محموداً ، ولا مندوماً ، هذا كله في جنس العلم أ.هـ

قوله [الثانية : العمل به] .

العمل هو ثمرة العلم ، فالذى يتعلم ولا يعمل مغبون مفتون .

والعلم النافع هو العلم الذى يتم العمل .

قال ابن القيم : فإن مجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها - النفس - لم ينفعها .

وقال شيخنا ابن عثيمين^(١) في شرح كتاب التوحيد : فضرر العلم الذى لا ينفع أشد من ضرر الجهل أ.هـ
والعلم إنما يراد للعمل ، وإلا كان وبالاً على صاحبه .

قال الشيخ حمد بن عتيق : العلم بلا عمل شجر بلا ثمر ، وحججة على صاحبه يوم القيمة .

ومن أعظم ما يخيف العبد قول النبي ﷺ : لا تزول قدمًا عبد يوم القيمة حتى يسأل عن : عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيما فعل ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه . رواه الترمذى ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وصححه الألبانى .

قال شيخنا ابن عثيمين : العمل في الحقيقة هو ثمرة العلم ، فمن عمل بلا علم ، فقد شابه النصارى ، ومن علم ولم يعمل فقد شابه اليهود .

وقد كان السلف رحمهم الله يحفظون العلم بالعمل ، قال بعض السلف : كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به .
وقد قيل : هتف العلم بالعمل فإن أجبه وإن ارتحل .

والعمل بالعلم يكسب العبد علوماً أخرى ، كما قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَأَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ .

قال بعض أهل العلم : من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ، ومن لم ي عمل بما علم أوشك الله أن يسلبه ما علم^(٢) .
والعلم العامل تصل موعظته القلوب ، وينفع الله بكلامه ، ولو كان قليلاً ، بسيطاً ، وأما غير العامل فلا تتعذر موعظته الآذان ، وإن زخرفه بأجمل البيان .

قال مالك بن دينار : إن العالم إذا لم ي عمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب ، كما تزل القطر عن الصفاء .
وما أجمل قول الفضيل : لا يزال العالم جاهلاً حتى ي عمل بعلمه ، فإذا عمل به صار عالماً .

ونقل الخطيب البغدادي في كتابه (اقتضاء العلم العمل) بسنده عن الشعبي قال : إنما لسنا بالفقهاء ، ولكن سمعنا الحديث فرويناه ، ولكن الفقهاء من إذا علم عمل .

والعبد لا تكمل لذته بالعلم إلا بالعمل به ، قال عون بن عبد الله : إنما يحمل الرجل على ترك العلم قلة الانتفاع بما قد علم .

(١) إذا قلت (شيخنا) فالمراد به شيخنا ابن عثيمين رحمه الله تعالى .

(٢) ويروى مرفوعاً ، ولا يصح رفعه .

والعلم المجرد عن العمل يُخذل صاحبه ولو بعد حين .

وكان بعض الشيوخ يوصي من يطلب عنده العلم بقوله : لا يكن العلم شقاء عليكم .

وهي كلمة عظيمة ، واسعة المدلول : فقد يكون العلم شقاء على صاحبه بالتفلت من الأوامر والتواهي باتباع الحيل ، وتتبع الرخص ، وقد يكون شقاء على صاحبه بدفعه بين أظهر أهل الدنيا حتى يفتتن بيدينه ، وقد يكون شقاء عليه بالسلط به ، والتباهي ، والعجب ، وغير ذلك من الآفات ، وحينها يكون الجهل في حقه خير من العلم .

وإليك بعض النقول النافعة عن السلف في شأن العمل :

- قال سفيان الثوري : ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديث قط إلا عملت به ولو مرة .
- وقال أحمد بن حنبل : ما كتبت حديثاً إلا وقد عملت به .
- وقال إبراهيم الحرري : ينبغي للرجل إذا سمع شيئاً من أدب رسول الله ﷺ أن يتمسك به .
- وقال الإمام مالك : إن حقاً على من طلب العلم أن يكون له وقار ، وسكينة ، وخشية .
- وقال بعض السلف : من أوي من العلم ما لا يكفيه يُخاف ألا يكون أوي علمًا ينفعه .
- وقال الذهبي : فإن رأيته محدّاً في طلب العلم ، لا حظ له في القربات فهذا كسلان مهين ، وليس بصادق في حسن نيته .
- ومن روائع كلام الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب : إذا أمر الله العبد بأمر وجب عليه فيه سبع مراتب : الأولى : العلم به . الثانية : محبته . الثالثة : العزم على الفعل . الرابعة : العمل . الخامسة : كونه يقع على المشروع خالصاً صواباً . السادسة : التحذير من فعل ما يحبطه . السابعة : الثبات عليه .

قوله [الثالثة : الدعوة إليه] .

بعد أن كمل الإنسان نفسه بالعلم ، والعمل ، ينبغي له أن يسعى لتكامل غيره ، قال ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . متفق عليه

قال محمد بن القاسم : كنا إذا ودعنا مالكاً يقول لنا : اتقوا الله ، وانشروا هذا العلم ، وعلموه ، ولا تكتموه .

وروى الدارمي في سنته عن الزهري قال : كان من مضى من علمائنا يقولون : نشر العلم ثبات الدين والدنيا ، وفي ذهاب العلم ذهاب ذلك كله .

وقال ابن المبارك : من بخل بالعلم ابتلي بثلاث : إما أن يموت فيذهب علمه ، أو ينساه ، أو يتبع السلطان .
والدعوة إلى الله من أشرف المقامات ، وأعلى المراتب ، إذ هي مقام الأنبياء ، والمرسلين .

ومن أعظم ما يدل على شرف الدعوة قول الله عز وجل ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَيَّ اللَّهِ ﴾ والمعنى : لا أحد .
وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب : فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم .

وقد قرر الله خيرية هذه الأمة بالدعوة إلى الله عز وجل ، فقال تعالى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

في الدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر تحفظ الأمة ، كما أنها لا تعز إلا بالجهاد في سبيل الله .
وأعلى مراتب الدعوة هي الدعوة إلى توحيد الله تعالى ، كما صدر كل نبي دعوته بالدعوة إلى التوحيد .
وقد مكث النبي ﷺ عشر سنوات بمكة يدعو إلى التوحيد ، ثم فرضت الصلاة ، وبقي الفرائض ، فأي دعوة لا تقنify منهاج النبوة فاماها البار ، والخسران .

ولا بد أن يسبق الدعوة : العلم بما يدعو إليه ، وكيفية الدعوة ، وهي شرط في الدعوة ، وإلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح ،
قال تعالى عن نبينا محمد ﷺ ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَيَّ اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ .
وعلى الداعي إلى الله ملازمة الإخلاص في دعوته ، فإن قلوب العباد بيد الله عز وجل ، فإن علم الله منه الصدق ، بارك في دعوته ، وفتح قلوب العباد لقبول ما يدعو إليه .

وينبغي على الداعي إلى الله أن لا يكون همه تكثير الناس ، بل يكون همه دعوة الناس على النهج القويم ، وإن كان المستحب له قليل ، وفي الحديث الصحيح : يأتي النبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد . متفق عليه
ومن أكبر ما ينبغي عليه : لا يطلب على دعوته غرضاً من أغراض الدنيا مهما كان ، سواء كان ذلك مالاً ، أو منصباً ، أو شهرة ، أو رفعة بين الناس ، أو غير ذلك من مطالب الدنيا ، وقد كان أعظم الدعاء من رسول الله يصدرون دعوكم لأقوامهم بقولهم ﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا ﴾ ﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ فهذا أول الرسل نوح عليه السلام يقول لقومه كما في سورة هود ﴿ وَيَا قَوْمَ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا ﴾ وهذا خاتم الرسل نبينا ﷺ قال لقومه كما في سورة الشورى ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ وهي سنة جميع الرسل .

ومن البلاء المعاصر أن تكون الدعوة مجالاً للكسب ، والله المستعان .

ومن جميل العبارة قول بعضهم يصور الواقع : كانت الدعوة غُرماً ، فصارت غُنماً .

تبنيه : لا بد أن نفرق بين مقامين في الدعوة إلى الله ، الأول مقام التصدي ، والتحول للدعوة ، وهذا لا بد له من علم كافٍ وقدوة صالحة ، وشروط أخرى ، والثاني الدعوة العرضية ، أو نقل العلم ، وهو أن يبلغ الإنسان ما سمعه من يحب من أهله ، وإنحوانه ، وهذا المقام أخف من المقام الأول ، وهو المراد من قوله ﷺ (بلغوا عني ولو آية) رواه البخاري ، فلا بد من التفريق بين المقامين ، والواقع اليوم خلط بينهما ، وكان نتيجة ذلك خلل واضح .

والكلام عن الدعوة ، وفضلها ، ووسائلها ، وشروطها كلام يطول ، وله مصنفات خاصة يرجع إليها .

قوله [الرابعة : الصبر على الأذى فيه] .

لقد قضى الله قضاءً كونياً أن من قام بدعوة الناس ، ونصحهم لا بد أن يلقى من بعضهم ، أو من أكثرهم ما يؤذيه ، ولذا أمر الله أولياءه بالصبر على ذلك ، ووعدهم بالأجر الكبير ، قال تعالى ﴿يَا حَسَرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِنُونَ﴾ وقال تعالى ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوْ اصْنَوْا بِهِ﴾ .

وحينما أوصى لقمان ابنه بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر أردف تلك الوصية بالوصية له بالصبر ، كما قال تعالى عنه ﴿وَأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ .

ليبين أن كل من قام بالدعوة فلا بد أن يحصل له من المخالفه ، والأذى ما يلزم التحليل بالصبر .

ولما بين الله فضل الدعوة بقوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنَ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَاهُ إِلَى اللَّهِ﴾ قال بعدها ﴿ادْفُعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَاتِ﴾ .

وفي حديث عائشة في قصة بعثته ﷺ عندما ذهبت به خديجة إلى ورقة بن نوفل قال له : لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي . متفق عليه

وقد ذكر شيخنا ابن عثيمين فائدة لطيفة جداً عند قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَتَرَبَّلا﴾ قال : كان من المنتظر أن يقال : فاشكر نعمة ربك عليك ، ولكنه عز وجل قال ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن كل من قام بهذا القرآن فلا بد أن يناله ما يحتاج إلى صبر .

وعلى هذا في ينبغي على من تصدى لنصح الناس : الاقتداء بالأنباء بالتحلي بالصبر ، واحتمال أذى الناس ، ومقابلة الإساءة بالإحسان ، وطلب الأجر من الله في ذلك كله .

قوله [والدليل قوله تعالى : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّابَرِ﴾] .

هذه السورة دليل على وجوب المسائل الأربع ، ووجه الدلالة أن من لم يتحقق هذه المسائل الأربع فهو في خسارة .

قال السعدي في تفسيره : والخسارة مراتب متعددة متفاوتة .

وقال في شرح منظومته للقواعد الفقهية : ومن فاته شيء من هذه الخصال كان له من الخسار بحسب ما فاته أ.هـ

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ دليل العلم ، وهي دلالة باللازم ، لأنه لا يمكن أن يوجد إيمان إلا بعلم ، وهذا من فقه الشيخ رحمه الله .

قال السعدي : ولا يكون الإيمان بدون العلم ، فهو فرع عنه ، لا يتم إلا به .

﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ دليل العمل ﴿تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ دليل الدعوة ﴿تَوَاصَوْا بِالصَّابَرِ﴾ دليل الصبر .

قال ابن القيم : جهاد النفس أربع مراتب :

١. أن يجاهدها على تعلم المدى ودين الحق .

٢. أن يجاهدها على العمل به بعد علمه ، فإن مجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها .

٣. أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه .

٤. أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ، ويتحمل ذلك كله لله ، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانين ، فإن السلف مجتمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق ، ويعمل به ، ويعلمه ، فمن علم وعمل وعلم فذلك يُدعى عظيماً في ملوك السماء . مختصرًا بتصرف .

وقال أيضاً في الرسالة التبوكية : فانحصر الكمال الإنساني على هذه المراتب الأربع :

١. العلم بما جاء به الرسول ﷺ .

٢. العمل به .

٣. بثه في الناس ، ودعوههم إليه .

٤. صبره وجهاده في أدائه وتنفيذـه .

قوله [قال الشافعي - رحمه الله -^(١) : لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكتفهم] .

وفي لفظ [لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم] ونُقل هذا القول بلفاظ آخر لا تخرج عن المعنى .
قال ابن تيمية عن كلام الشافعي : هو كما قال .

ومراد الشافعي رحمه الله أن هذه السورة بينت طريق الفلاح ، وطريق الخسران .

وهذا دليل على عظم هذه السورة ، وعلى عظم فقه السلف الصالح ، وسعة علمهم .

قال ابن القيم في إغاثة اللھفان : فأقسام سبحانه وتعالى بالدهر الذى هو زمن الأعمال الراحلة والخاسرة ، على أن كل واحد في خسر ، إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان بالله ، وقوته العملية بالعمل بطاعته ، فهذا كماله في نفسه ، ثم كمل غيره بوصيته له بذلك ، وأمره إياه به ، وعِلَّاك ذلك ، وهو الصبر .

فكمل نفسه بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، وكمل غيره بتعلمه إياه ذلك ، ووصيته له بالصبر عليه ، ولهذا قال الشافعي رحمه الله : لو فكر الناس في سورة (والعصر) لكتفهم .

وهذا المعنى في القرآن في مواضع كثيرة يخبر سبحانه أن أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه ، وأهل الشقاوة هم الذين جهلو الحق وضلوا عنه ، أو علموا وخالفوه واتبعوا غيره .

وقال في مفتاح دار السعادة : فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره .

قوله [وقال البخاري رحمه الله : باب^٢ : العلم قبل القول ، والعمل . والدليل قوله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فبدأ بالعلم قبل القول ، والعمل] .

تبنيب البخاري يدل على عظم فقهه رحمه الله ، وقوته استبطاطه^(٢) .

وفي قوله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ دليل على أن أول ما يجب علمه وتعلمها هو التوحيد .

ومناسبة ذكر كلام البخاري هنا : أن هذه الآية مصريحة بوجوب العلم ، لأنها جاءت بصيغة الأمر الدال على الوجوب ، أما آية العصر فهي عن طريق المفهوم (اللازم) .

وي يمكن أن يكون مراده : الدلالة على ترتيب هذه المسائل ، فالعلم أولاً ، ثم العمل ، والله أعلم .

(١) من عادة أهل العلم : الصلاة والسلام على النبي ﷺ والاقتصار على السلام في حق باقي الأنبياء ، أو الصلاة والسلام عليهم ، والترضي على الصحابة ، والترجم على أهل العلم .

(٢) ذكر الشيخ كلام البخاري بعنوانه ، ونصه كما في صحيحه : باب العلم قبل القول والعمل ، لقول الله تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) فبدأ بالعلم . هنا نصه كما في فتح الباري ج ١ ص ١٩٢ (مكتبة ابن تيمية) بدون زيادة (واستغفر لذنبك) وهي موجودة في بعض النسخ ، وهي أدل على المقصود ، والله أعلم ، وبدون قوله (قبل القول والعمل) في الثانية .

اعلم رحمة الله أنه يجب على كل مسلم ، و المسلم تعلم هذه المسائل الثلاث ، والعمل بهن : الأولى : أن الله خلقنا ، و رزقنا ، ولم يتركنا هملاً ، بل أرسل إلينا رسولاً ، فمن أطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار .

والدليل قوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذَنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ .

الثانية : أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل .

والدليل قوله تعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ .

الثالثة : أن من أطاع الرسول ، و وحد الله ، لا يجوز له موالة من حاد الله و رسوله ، ولو كان أقرب قريب .

والدليل قوله تعالى ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُونَ مَنْ حَادَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أَوْ لَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُۚ أَوْ لَئِكَ حِزْبُ اللَّهِۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

هذه هي الرسالة الثانية من التمهيد .

و خلاصتها : وجوب تعلم ثلاث مسائل ، و وجوب العمل بهن ، وهي ^(١) :

١. وجوب طاعة الرسول ﷺ .
٢. وجوب توحيد الله تعالى .
٣. وجوب معاداة من حاد الله و رسوله ﷺ .

(١) ذكر بعض الشرائح أن خلاصة هذه المقدمة هو الكلام عن الولاء والبراء ، وأن المسألة الأولى والثانية تمهيد للثالثة ، فمن لازم الإيمان بالله و توحيده ، و طاعة رسوله ﷺ أن تعادي من حاد الله و رسوله ﷺ إذ لا يجتمع في القلب التوحيد و نقشه ، و تمام الطاعة و ضدها . و ذكر بعضهم أن المسألة الأولى تكلم عن توحيد الربوبية ، والثانية عن توحيد الألوهية ، والثالثة عن الولاء والبراء . والأقرب والله أعلم أن كل مسألة منفصلة عن الأخرى ، وأن الأولى في وجوب طاعة الرسول ﷺ ، والثانية في وجوب توحيد الله ، والثالثة في الولاء والبراء ، وانظر هذه الرسالة في مجموعة التوحيد ص ١٢ بلفظ آخر ، والله أعلم .

قوله [الأولى] : أن الله خلقنا

هذه هي المسألة الأولى ، وخلاصتها : وجوب طاعة الرسول ﷺ .

قوله [أن الله خلقنا] الآيات في ذلك كثيرة جداً ، منها : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله [ورزقنا] الآيات في ذلك أيضاً كثيرة ، منها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ ﴾ .

قوله [ولم يتركنا هملاً] قال تعالى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَّاً ﴾ وقال تعالى ﴿ أَيْحَسْبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتَرَكَ سُدًّى ﴾ .

قوله [بل أرسل إلينا رسولاً] قال تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ .

قوله [فمن أطاعه دخل الجنة] قال تعالى ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ .

قوله [ومن عصاه دخل النار] قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودُهُ يُدْخِلُهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

ثم ذكر الدليل على وجوب طاعة الرسول ﷺ .

قوله [الثانية] : أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل . والدليل قوله تعالى :

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ^(١) [].

هذه هي المسألة الثانية ، وخلاصتها : وجوب توحيد الله .

وقد جاء في آيات كثيرة جداً النهي عن الشرك ، وذمه ، وذم أهله ، وقال تعالى ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفُرُ ﴾ .

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم قال ﷺ : قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركه وشركه .

ونص المصنف على الملك المقرب ، والنبي المرسل ، لأن غيرهما من باب أولى .

قوله [الثالثة] : أن من أطاع الرسول ، ووحد الله لا يجوز له موافاة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب . والدليل

قوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا..... ﴾ [].

هذه هي المسألة الثالثة ، وخلاصتها : وجوب معاداة الكفار ، وإظهار ذلك ، كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام ، ومن

معه على الطريق من الأنبياء ^(٢) : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا يَمِنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَعْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ .

وهذه المسألة من أهم مسائل الدين ، وهي البرهان على صدق الحبة والإيمان ، فلا إيمان صادق إلا بالبراءة من الشرك وأهله .

قال ﷺ : أوثق عرى الإيمان الحب في الله ، والبغض في الله . رواه الطبراني ، وحسنه الألباني .

(١) المساجد : إما أن يراد بها : أعضاء السجدة ، أو مواضع السجدة (المساجد) ، أو ذات السجدة ، على أقوال .

(٢) قيل : ومن معه من المؤمنين ، وقيل : ومن معه على الطريق من الأنبياء ، وهو الأقرب .

يقول ابن تيمية عن الآية السابقة التي ذكرها المصنف : فأخبر أنك لا تجد مؤمناً يواد المحادين لله ورسوله ، فإن نفس الإيمان ينافي موادته ، كما ينفي أحد الضدين الآخر ، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده وهو موالاة أعداء الله ، فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب .

وأصل الم الولاية : من الولاية وهي المحبة ، قال تعالى ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلّٰهِ ۚ ﴾ هنالك المحبة ، والمؤودة ، والنصرة لله . والكلام عن هذه المسألة وفروعها نرجحه إلى شرح نوافع الإسلام إن شاء الله ، لكن مما يحسن التنبية عليه هنا أن نقول : **موالاة الكفار على قسمين :**

١. **مخرجة من الملة (ال الولاية الكبرى) ولها صور منها :** محبة دين الكفار ، أو محبة الكافر لدینه ، أو تصحیح دین الكفار ، أو محبة أن يتتصر الكفار على المسلمين دوماً بقصد ظهور الكفر .

٢. **غير مخرجة من الملة وهي جرم عظيم ، وضابطها :** كل ما كان وسيلة إلى المولاية الكبرى . وأنواعها كثيرة منها : تقديرهم في الحال ، وتوليتهم على المسلمين ، والتشبه بهم ، وإكرامهم . وينبه هنا إلى أن البر والقسط مع الكفار لا بأس به ، كما قال تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسدوهم إن الله يحب المقطسين) كذلك لا بأس بالتعامل معهم في البيع ، والشراء ، والنهي عنه هو المؤودة القلبية ، وكل ما يؤدي إليها من الأقوال ، والأفعال .

قال السعدي في تفسيره : ولما نزلت هذه الآيات الكريمة (سورة المتحنة) المهيجة على عداوة الكافرين ، وقعت من المؤمنين كل موقع ، وقاموا بها أتم القيام ، وتأثروا من صلة بعض أقاربهم المشركين ، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه . فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في الحرم فقال (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسدوهم إن الله يحب المقطسين) أي : لا ينهاكم الله عن البر والصلة ، والمكافأة بالمعروف ، والقسط للمرتكبين ، من أقاربكم وغيرهم ، حيث كانوا بحال لم يتتصروا لقتالكم في الدين ، والإخراج من دياركم ، فليس عليكم جناح أن تصلوهم ، فإن صلتهم في هذه الحالة لا محذور فيها ، ولا مفسدة ، كما قال تعالى عن الأبوين المشركين إذا كان ولدhem مسلماً (وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً) .

وقوله (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين) أي : لأجل دينكم ، عداوة الدين الله ولمن قاتل به (وأخرجوكم من دياركم وظاهروا) أي : عاونوا غيرهم (على إخراجكم) نهاكم الله (أن تولوه) بالمؤودة والنصرة ، بالقول والفعل ، وأما برككم وإحسانكم الذي ليس بتول للمشركين ، فلم ينهاكم الله عنه ، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الآدميين ، وغيرهم .

(ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) وذلك الظلم يكون بحسب التولي ، فإن كان تولياً تاماً صار ذلك كفراً مخرجاً عن دائرة الإسلام ، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ ، وما هو دون ذلك أ.هـ

اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم : أن تعبد الله مخلصاً له الدين .

وبذلك أمر الله جميع الناس ، وخلقهم لها ، كما قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ﴾ .
ومعنى يعبدون : يوحدون .

وأعظم ما أمر الله به التوحيد ، وهو إفراد الله بالعبادة .

وأعظم ما نهى عنه الشرك ، وهو دعوة غيره معه .

والدليل قوله تعالى ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾ .

هذه هي الرسالة الثالثة من التمهيد .

وخلاصتها : بيان حقيقة التوحيد ، وبيان أهميته .

قوله [اعلم أرشدك الله لطاعته] جملة دعائية ، فيها تلطف ، ولين ، وشفقة ، والرشد ضد الغي .

قوله [أَنَّ الْحَنِيفَةَ (١) مِلْةُ إِبْرَاهِيمَ : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لِهِ الدِّينَ] .

قال ابن تيمية : والقرآن كله يدل على أن الحنيفية هي ملة إبراهيم ، وأنها عبادة الله وحده ، والبراءة من الشرك ، وعباداته سبحانه إنما تكون بما أمر به وشرعه ، وذلك يدخل في الحنيفية . ولا يدخل فيها ما ابتدع من العبادات .

والحنيف (٢) هو المقبل على الله ، المعرض عما سواه ، وفسرها المصنف هنا : أن تعبد الله مخلصاً له الدين ، وهذا هو التوحيد الذي جاءت به الرسل .

قال ابن تيمية : الدين الحنيف هو : الإقبال على الله وحده ، والإعراض عما سواه ، وهو الإخلاص الذي ترجمته كلمة الحق ، والكلمة الطيبة (لا إله إلا هو) أ.هـ

وملة إبراهيم التي أمر الله رسوله ﷺ باتباعها ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنَّ أَثْيَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ هي ملة جميع الرسل ، وهي ملة التوحيد .

وقد كان العرب في الجاهلية ينسبون أنفسهم إلى ملة إبراهيم ، مخالفين من سواهم من الصابئة ، وأهل الكتاب ، وكانوا يحجون البيت ، ويختتنون ، خلافاً لغيرهم .

قال أبو عبيد : الحنيف عند العرب من كان على دين إبراهيم ﷺ .

(١) وأما حديث (بعثت بالحنيفية السمية) فسنته ضعيف . قال ابن القيم : أي : بمللة ، فهي حنيفية في التوحيد ، سمعة في العمل .

(٢) الحنيف مشتق من الحنف ، وقد ذهب كثير من أهل اللغة إلى أن الحنف هو الميل ، وأن الحنيف هو المائل إلى الخير .

وذهب بعضهم إلى أن الحنف : الميل إلى الخير ، والجنف : الميل إلى الشر .

وقد بحث ابن تيمية المسألة في مبحث خاص يحسن الرجوع إليه ، وذكر أن الحنيف هو المقبول ، وقال : وللسلف في الحنيف عبارات ، قيل : المستقيم ، كقول محمد بن كعب القرظي ، والمتبع ، كقول مجاهد ، والمخلص ، كقول عطاء ، وأما تفسيره بالمايل فهذا من قول بعض متأخرى أهل اللغة .

وقال ابن القيم في جلاء الأفهام : والحنيف : المقبول على الله ، المعرض عما سواه ، ومن فسره بالمايل فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ ، وإنما فسره باللازم المعنى ، فإن الحنف : هو الإقبال ، ومن أقبل على شيء مال عن غيره ، والحنيف في الرجلين هو إقبال إحداهما على الأخرى ، ويلزمه ميلها عن جهةها .

وقال في مفتاح دار السعادة : والحنيف : المقبول على الله ، ويلزمه هذا المعنى ميله عما سواه ، فالميل لازم معنى الحنيف ، لا أنه موضوع لغة .

وجاء في حمارة اللغة : قال أبو حاتم : قلت للأصمي : من أين عُرف في الجاهلية الحنيف ؟
قال : لأنَّه كل من عدل عن دين النصارى فهو حنيف عندهم أ.هـ

وحقيقة الحال أنَّهم مخالفون تماماً ملة إبراهيم ، كما هو معلوم من حاهم .

قوله [وبذلك أمر الله جميع الناس ، وخلقهم لها كما قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ﴾] ومعنى يعبدون : يوحدون [.

أما أمره ف جاء في آيات كثيرة ، منها أول أمر في القرآن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ .

وأما خلقه الناس لها ف قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ﴾ .

وتفسير يعبدون بـ(يوحدون) هذا من تفسير الشيء بأخص أفراده ، أو بأعظم أفراده ، وهو تفسير ابن عباس .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : والعبادة هي التوحيد ، لأنَّ الخصومة بين الأنبياء والأمم فيه . الدرر السننية ج ٨ ص ٦٦ .

قوله : [وأعظم ما أمر الله به التوحيد ، وهو إفراد الله بالعبادة ، وأعظم ما نهى عنه الشرك وهو دعوة غيره معه ،

والدليل قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾] .

لقد أمر الله سبحانه بأوامر كثيرة ، ونهى عن أشياء كثيرة ، ولكن أعظم ما أمر به هو التوحيد ، لأنَّه لا شيء أجل قدرأ ، ولا

أعظم أجراً منه ، ولا يحصل نعيم في الدنيا ، أو الآخرة إلا به ، وضد ذلك الإشراك بالله ، ولذا أجمع الرسل على هذه

الدعوة ، قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَإِلَهٌ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونَ ﴾ .

يقول ابن تيمية : ولا أفع للقلب من التوحيد ، وإنْلاص الدين لله ، ولا أضر عليه من الإشراك .

ويقول أيضاً : ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله ، وعبادته ، وطاعة رسوله ﷺ ، وكل شر

في العالم ، وفتنة ، وبلاء ، وقطط ، وتسلط عدو ، وغير ذلك ، فسببه مخالفة الرسول ﷺ ، والدعوة إلى غير الله ، ومن تدبر

هذا حق التدبر ، وجد هذا الأمر كذلك ، في خاصة نفسه ، وفي غيره ، عموماً ، وخصوصاً .

ويقول ابن القيم : ما دفعت شدائِ الدنيا بمثل التوحيد ، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد ، ودعوه ذي النون التي ما دعا بها

مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد ، فلا يلقي في الْكُرْب العظام إلا الشرك ، ولا ينجي منها إلا التوحيد ، فهو مفرع الخلقة

، وملجؤها ، وحصنها ، وغياثها .

وهذه الآية التي ذكر المصنف جمعت الأمرين ، الأمر بالتوحيد ، والنهي عن الشرك .

فإذا قيل لك : ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها ؟
فقل : معرفة العبد ربِه ، ودينه ، ونبيه محمدًا ﷺ .

من هنا بدأ المصنف الكلام عن القسم الثاني ، وهو الكلام عن الأصول الثلاثة ، وهي أصل هذه الرسالة .
وخلاصة هذا المقطع : ذكر الأصول الثلاثة محملة .

بدأ المؤلف الكلام على موضوع هذه الرسالة ، وهو الأصول الثلاثة ، وأجملها هنا ، وسوف يفصلها بأدلةها أثناء الرسالة .
والأصول : جمع أصل ، وهو في اللغة : أسفل الشيء ، وأساسه . وهو ما يبني عليه غيره .

ومنه أصل الجدار ، وهو أساسه الذي يبني عليه ، وأصل الشجرة ، وهو جزءها الثابت في الأرض .
قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةً طَيِّبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُونَهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .
قوله [معرفة العبد ربِه] يشمل : معرفته بتوحيد الربوبية ، والألوهية ، والأسماء والصفات .

وهذا أعظم مطلب ، يقول ابن تيمية : اللذة ، والفرحة ، والسرور ، وطيب الوقت ، والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه ، إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى ، وتوحيده ، والإيمان به .

وقال ابن القيم : من عرف الله بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله أحبه لا محالة .
قوله [ودينه] وهي معرفة ما يصحح إسلامه من أمور الدين ، وكلما ازداد من تعلم أمور الدين أجر على ذلك .
قوله [ونبيه ﷺ] . معرفة سيرته إجمالاً ، ومعرفة ما جاء به من الدين ، والتصديق بذلك .

فإن قيل لك : من ربك ؟
 فقل : رب الله الذي رباني ، وربى جميع العالمين بنعمه .
 وهو معبودي ، ليس لي معبود سواه .
 والدليل قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكل ما سوى الله عالم ، وأنا واحد من ذلك العالم .

بعد أن ذكر المصنف الأصول الثلاثة محملة ، بدأ هنا بالتفصيل ، وبدأ بتعريفة الرب .
 ومعرفة الرب بحسب ما ذكره المصنف هنا تتضمن أمرتين :
 ١. معرفة أنه الرب (توحيد الربوبية) .
 ٢. معرفة أنه المعبود وحده (توحيد الألوهية) .
 والرب في اللغة يطلق على من يقوم بالحفظ ، والرعاية ، وعلى الخالق المربi ، وعلى المالك ، والسيد ، والمدير ، والقيم ، والنعم .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَنِي صَغِيرًا﴾ .
 قال ابن تيمية : والرب هو المربi ، الخالق ، الرزاق ، الناصر ، الحادي .
 وتربيـة الله لـعبادـه تـشمل : الـخلق ، الرـزق ، وسـائر النـعم ، وأعـظم أنـواع التـربية إـرسـال الرـسل ، وإنـزال الكـتب .
 والـرب لا يـطلق مـعرفـاً بـالـأـلـفـ وـالـلـامـ إـلـا عـلـى اللهـ تـعـالـى .
 قوله [رب الله الذي رباني ، وربى جميع العالمين بنعمه ، وهو معبودي ليس لي معبود سواه] .

جمعت هذه الجملة بين توحيد الربوبية بقوله (رب الله الذي رباني) ، وتوحيد الألوهية بقوله (وهو معبودي) .
 وفي قوله [معبودي ليس لي معبود سواه] جمع بين الإثبات والنفي ، وهما ركنا التوحيد .
 قوله [والدليل قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكل ما سوى الله عالم ، وأنا واحد من ذلك العالم] .
 هذا دليل قوله (من ربك) ، والجواب : رب العالمين جميـعاً ، وأنا منهم . قال تعالى ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رِبًا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ .

وذلك لأن الوجود قسمان : رب ، ومربيـب .
 وسموا عـالـمـين ، لأنـهمـ عـلـمـ عـلـى خـالـقـهـمـ ، وـمـالـكـهـمـ ، وـمـدـبـرـهـمـ .
 و(أـلـ) في الحـمدـ لـلاـسـتـغـرـاقـ ، فـكـلـ حـمـدـ مـوـجـودـ ، أـوـ يـوـجـدـ ، فـهـوـ مـسـتـحـقـ للـهـ ، لأنـ اللـامـ في لـفـظـ الـحـالـلـةـ لـلاـسـتـحـقـاقـ .
 والـحمدـ هـوـ : الـاعـتـرـافـ لـلـمـحـمـودـ بـصـفـاتـ الـكـمالـ ، معـ مـحـبـتـهـ ، وـتـعـظـيمـهـ .

فإن قيل لك : بم عرفت ربك ؟

فقل : بآياته ، وخلوقاته .

ومن آياته : الليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر .

ومن خلوقاته : السماوات السبع ، والأرضون السبع ، ومن فيهن ، وما بينهما .

والدليل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانًا تَعْبُدُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِينًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : ذكر الدليل على وجود الله ، وتفريده بالربوبية .

قوله [بم عرفت ربك] أي : بم عرفت وجود ربك .

لما ذكر المصنف الدليل على أن الرب هو الله ، ذكر الوسيلة العقلية التي يستدل بها على وجوده ، فذكر أن الوسيلة هي الآيات ، والخلوقات ، وذكر بعضاً منها ، لأن قوله (ومن) للتبييض .

ودلالة الآيات المذكورة على وجود الله : أنها تسير بنظام ، فدل أن لها رباً يديرها ، ويسيرها بهذا النظام .

قال تعالى (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) .

ودلالة المخلوقات على وجود الله : لأنها مخلوقات ، أي وجدت بعد أن لم تكن موجودة ، وهذا يدل أن لها رباً خلقها ، وأوجدها .

أم كيف يجحده الجاحد	فواججاً كيف يعصى الإله
وتسكنية أبداً شاهد	ولله في كل تحريكه
تدل على أنه الواحد	وفي كل شيء له آية
	فكل الوجود يشير إلى الموجود ، والمعبد .

تبنيه : الآيات ، والخلوقات في الكتاب والسنة بينهما فرق ، فالآيات أعم ، وهي نوعان :

١. آيات شرعية : وهي ما أنزل الله على رسle من الوحي .

٢. آيات كونية : وهي المخلوقات .

وأما في كلام المؤلف فهما واحد ، لأن الآيات التي ذكرها آيات كونية (خلوقات) وإنما فرق بينهما في اللفظ ، لموافقة لفظ ما استدل به من الآيات .

وعليه تكون الواو في قوله (بآياته ، وخلوقاته) ليست للمغایرة ، وإنما من باب عطف الخاص على العام ، لأن المخلوقات هي الآيات الكونية .

والرب هو المعبد ، والدليل قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة .

خلاصة هذا المقطع : ذكر الدليل على وجوب إفراد الله بالألوهية .

قوله [والرب هو المعبد] يعني المستحق للعبادة .

بعد أن ذكر المصنف الدليل على تفرد الله بالربوبية ، ذكر الدليل على وجوب إفراده بالألوهية ، وهذا من أعظم وأكثر الأساليب التي جاءت في القرآن لتقرير المشركين بتوحيد الألوهية ، فينطلق معهم من الأمر الذي يقررون به - في الجملة - وهو توحيد الربوبية إلى الأمر الذي ينكرونه ، وهو توحيد الألوهية ، وهذا الأسلوب من أعظم أساليب الإقناع^(١) ، ولذا ذكر ابن كثير أن الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة^(٢) .

والمعنى : إذا كنت تقر أن الله هو المنعم عليك بجميع النعم ، من : الخلق ، والرزق ، والحفظ ، والرعاية وبهذه وحده نفعك وضرك ، وصحتك ومرضك ، وحياتك وموتك فلم تعبد غيره ؟! ولم ترجو النفع ، وتخش الضر من غيره ؟! ولذا يقول المصنف محمد بن عبد الوهاب في بعض كتبه : إذا كان الله واحد في أفعاله ، فوحده بأفعالك .

وقال مرة : والواحد في القصد هو الواحد في الخلق .

- سبق أن ذكرنا أن المصنف تضمن كلامه في معرفة الرب أمران :

١. أنه رب : وذكر الدليل ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهذا توحيد الربوبية .

٢. أنه المعبد : وهنا ذكر الدليل على ذلك ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا ... ﴾ وهذا توحيد الألوهية .

فيعد أن قرر المصنف العبد أن الله هو ربه ، لأنه رب العالمين جميعاً - وهو واحد منهم - وأن الآيات ، والخلوقات التي يشاهدها يومياً ، ويعايشها هي دلالة ، وطريق إلى معرفة هذا رب ، لزمه عند ذلك أن يفرد هذا رب بالعبادة ، لأن الإنسان لا بد أن يعبد شيئاً - وإنما عبد هواه - فإذا كان لا بد أن يعبد شيئاً ، فليعبد حالقه ، والنعم عليه ، وخالف كل شيء .

قال ابن القاسم :

فُلُوا بِرِقٍّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانَ

هَرَبُوا مِنْ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ

(١) وقد ذكر الشيخ المراس في كتابه (دعوة التوحيد) طرق القرآن في تقرير توحيد الألوهية ، فليرجع إليه .

(٢) وهذه العبارة هي خلاصة مقصود ابن كثير ، وليس من لفظه ، ومراد الشيخ تقرير العلم لعوام الناس بأقرب عبارة .

وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان .

ومنه : الدعاء ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والرغبة ، والرهبة ، والخشوع ، والخيبة ، والإناية ، والاستعانة ، والاستغاثة ، والذبح ، والنذر ، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها الله تعالى ، والدليل قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ .

فمن صرف منها شيئاً لغير الله ، فهو مشرك كافر ، والدليل قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : ذكر بعض العبادات التي يجب صرفها لله وحده .

بعد أن قرر المصنف أن الله هو المعبود ، ذكر بعد ذلك بعض أنواع العبادات التي يعبد بها هذا الرب ، وإنما ذكر ذلك لأمرتين :

١. أن يعبد الله بها فلا تحر .

٢. ألا تصرف لغيره ، وإلا كان شركاً ، قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

ويلاحظ في أنواع العبادات التي ذكرها المصنف أن أكثرها عبادات قلبية .

قوله [مثل : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان] .

ظاهر كلام المصنف أن هذه الثلاثة من أنواع العبادة ، وهذا فيه إشكال ، لأن هذه هي أنواع الدين ، ومراتبه ، كما في حديث عمر الآتي ، وبعد أن ذكر هذه الثلاث مراتب قال ﷺ (هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم) .

لكن نحمل كلام المصنف أن ما ذكره من الإسلام ، والإيمان ، والإحسان يقصد أن أركانها من العبادة ، وأن هذه هي أصول العبادات .

ولذلك لما سرد بعد ذلك أدلة أنواع العبادة لم يسرد أدلة هذه الثلاث مراتب ، لأنه سيتكلم عنها مفصلاً في الأصل الثاني ، لأنها أنواع الدين ، لا أنواع العبادة .

وقوله هنا (فهو مشرك كافر) مشرك لأنه أشرك مع الله غيره ، وكافر لأنه جحد حقاً لله فصرفه لغيره .
والقاعدة : أن كل مشرك كافر ، وليس كل كافر مشرك .

وفي الحديث (الدعاء مخ العبادة)^(١) ، والدليل قوله تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

ودليل الخوف : قوله تعالى ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

ودليل الرجاء : قوله تعالى ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ .

ودليل التوكيل : قوله تعالى ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسِيبٌ ﴾ .

ودليل الرغبة ، والرهبة ، والخشوع : قوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَغْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا حَاسِعِينَ ﴾ .

ودليل الخشية : قوله تعالى ﴿ فَلَا تَخْشُوهُمْ وَأَخْشَوْنَ ﴾ .

ودليل الإنابة : قوله تعالى ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ .

ودليل الاستعانة : قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وفي الحديث (إذا استعن فاستعن بالله)^(٢) .

ودليل الاستعاذه : قوله تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .

ودليل الاستغاثة : قوله تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجِابَ لَكُمْ ﴾ .

ودليل الذبح : قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي (٣) وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .
ومن السنة : (لعن الله من ذبح لغير الله) .

ودليل النذر : قوله تعالى ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شُرُهُ مُسْتَطِرًا ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : ذكر أدلة العبادات التي ذكرها قبل ذلك .

بعد أن ذكر المصنف أنواع العبادات سرداً ، وذكر الدليل على أن من صرف عبادة لغير الله فهو مشرك ، أردف بعدها أدلة هذه العبادات التي تبين أن ما ذكره فعلاً عبادة ، وإذا ثبت أنه عبادة فصرفها لغير الله شرك أكبر .

(١) هذا الحديث الذي ذكره المصنف رواه الترمذى من حديث أنس ، وقال : حديث غريب .

والحديث فيه ابن هبطة ، وهو ضعيف ، لكن يشهد له حديث النعمان بن بشير الذي رواه أبى أحمد ، وأصحاب السنن الأربع (الدعاء هو العبادة) وهو حديث صحيحه جماعة ، منهم الترمذى ، وقال ابن حجر في الفتح : أخرجه أصحاب السنن بسنده جيد . وصححه الألبانى .

ويعنى منع العبادة ، أي : صميمها ، لأن الجسد يغذى على المخ ، فإذا فقد المخ ذهب الحسد ولي .

(٢) حديث مشهور أوله (احفظ الله يحفظك) أخرجه أبى أحمد ، والتزمذى ، وصححه التوكوى .

(٣) النسك يمعن العبادة ، ويأى يمعن الذبح ، وعليه جمهور المفسرين في الآية ، وهو كقوله تعالى (فصل لربك وآخر) .

مسألة : من أين نأخذ من الآيات أن هذه الأمور عبادات ؟

الجواب : نرجع إلى تعريف العبادة بأفرادها ، وهي ما عرفها به ابن تيمية رحمه الله : كل ما يحبه الله ، ويرضاه من الأقوال ، والأفعال ، الظاهرة ، والباطنة .

فعرف أنه عبادة بأمر :

١. أن يأتي الأمر بها : فتكون عبادة ، لأن الله لا يأمر إلا بما يحبه ويرضاه . سواء كان الأمر واجباً ، أو مندوباً .

٢. أن يأتي بصيغة المدح ، والثناء عليها ، أو على أهلها ، لأن الله لا يشين إلا على ما يحبه ويرضاه . كقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ، قوله تعالى (ويدعوننا رغباً ورهباً) .

٣. أن يرتب الثواب عليها .

والعبادة تعرف باعتبارين :

١. بالمعنى العام (التعبد) : وهي ما جمع بين كمال الحب ، مع كمال التعظيم والخصوص في العبادة .

قال ابن تيمية : العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل ، وذلك لا يستحقه إلا الله وحده .

وقال ابن القيم في الجواب الكافي : ومن خصائص الإلهية : العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بذوهما : غاية الحب ، مع غاية الذل . هذا تمام العبودية ، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين .

وقال في مدارج السالكين : والعبادة تجمع أصلين : غاية الحب ، بغاية الذل والخصوص ، والعرب تقول : طريق معد . أي : مذلل ، والتعبد : التذلل والخصوص ، فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له ، لم تكن عابداً له ، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له ، حتى تكون محبًا خاضعاً .

وقال في النونية : وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده بما قطبان

٢. باعتبار أفرادها : وهي ما عرفها به ابن تيمية : كل ما يحبه الله ، ويرضاه من الأقوال ، الظاهرة ، والباطنة .
تبليه : جميع هذه الأمور المذكورة عبادات لا يجوز صرفها على وجه التعبد إلا لله ، ومن صرفها على وجه التعبد لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر ، والعياذ بالله ، وهذه الأمور قد تصرف لغير الله على غير جهة التعبد ، وهذا جائز على تفصيل في كل منها ، يأتي عند شرح كتاب التوحيد إن شاء الله ، لأن المصنف أفرد لها أبواباً في كتاب التوحيد ، ومقام هذه الرسالة لا يحتمل التفصيل .

الأصل الثاني : معرفة دين الإسلام بالأدلة ، وهو : الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والبراءة من الشرك ، وأهله .

وهو ثلات مراتب : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان . وكل مرتبة لها أركان .

خلاصة هذا المقطع : بيان الأصل الثاني ، وهو معرفة الدين ، وبيان أنه ثلات مراتب ، وأن لكل مرتبة أركان .

قوله [معرفة دين الإسلام بالأدلة] ومراده هنا الإسلام بمعنى العام بمراتبه الثلاث .

لأن الإسلام إذا أطلق شمل الإيمان ، وكذلك الإيمان إذا أطلق شمل الإسلام ، ويكون بمعنى الدين .

قوله [وهو الاستسلام لله بالتوحيد] الاستسلام : مشتق من التسليم ، كما يقال : استسلم فلان للقتل ، أي : أسلم نفسه ، وانقاد وخضع .

والاستسلام لله على ضربين :

١. الاستسلام الشرعي : وذلك بتوحيد الله وإفراده بالعبادة ، وهذا هو المطلوب من العبد ، وهو الذي يحمد عليه ، ويثاب عليه .

٢. الاستسلام القدري : وهذا الذي لا حيلة للإنسان فيه ، ولا يثاب عليه ، قال تعالى ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ .

قوله [والانقياد له بالطاعة] وذلك بفعل المأمور ، واجتناب المحظور ، فلا بد من العمل ، ولا بد أن يكون ذلك عن اختيار ، فتبين أن مراد الشيخ الاستسلام الشرعي .

قوله [والبراءة من الشرك ، وأهله] فيبين أن من لوازم الشهادة: البراءة من الشرك وأهله ، وأن ذلك أصل من أصول الدين. فلا بد أن يجتمع في المرء حتى يكون مسلماً هذه الثلاثة أمور المذكورة في تعريف المصنف للإسلام ، ولو تخلف أحدها لم يكن مسلماً ، فلو أقر لله بالتوحيد ولم يعمل فهو كافر ، ولو عمل ظاهراً ، وهو لم يستسلم بقلبه فهو كافر - كحال أهل النفاق الكلي - ولو لم يبغض الشرك ، ويتبرأ منه فإنه ليس بMuslim ، فلو كان يحب الإسلام وأهله ، ولكنه لا يبغض الشرك وأهله فإنه ليس بMuslim^(١) .

تبيه : ذكر الشيخ إبراهيم الخريصي في (التنبیهات المختصرة) أنه وقع في بعض نسخ الأصول الثلاثة ونحوها عباره (والخلوص من الشرك وأهله) بدل (البراءة) وذكر أنه في النسخ المعتمدة (البراءة) لأن الخلوص من الشرك لا يكفي وحده ، بل لا بد معه من البراءة من أهله وتکفيرهم . كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَعْضَاءُ أَكْبَرًا حَتَّى اتُّهِمُوا بِاللَّهِ وَهُدُوْهُ ﴾ .

(١) ولكن قد يبغض الشرك وأهله باعتبار الأصل ، لكنه يجب بعض المشركين لغرض من أغراض الدنيا ، فهذا ليس بكافر كفراً أكبر ، لكنه ناقص الإسلام . يقول ابن تيمية : وقد تحصل للرجل موادكم لرحم ، أو حاجة فنكرون ذنبًا ينقص به إيمانه ، ولا يكون به كافراً ، كما حصل من حاطب بن أبي بلعة .

قوله [وهو ثلات مراتب : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان] .

المرتبة : هي المترلة ، ولم يقل (ثلاث أنواع ، أو أقسام) ليشعر أنها مراتب ودرجات ، مرتبة تعلوها مرتبة .

فالمسلم ، المؤمن ، والمحسن الجميع من أهل دين الإسلام ، لكن لكل مرتبته الخاصة به .

فالإسلام هو إقامة الأعمال الظاهرة ، مع بعض الإيمان الذي يصحح هذا العمل الظاهر ، وإلا كان منافقاً .

والإيمان : هو الإيمان بأركان الإيمان الستة ، وتحقيق مقامات القلب ، مع بعض أعمال الإسلام الظاهرة التي بها يصح هذا الإيمان الباطن ، وإلا كان كاذباً .

والإحسان : هو مقام مراقبة الله جل وعلا .

قال ابن أبي شيبة : لا يكون إسلام إلا بإيمان ، ولا إيمان إلا بإسلام .

وقال ابن باز : فلا إسلام إلا بإيمان ، ولا إيمان إلا بإسلام ، فلا بد من هذا ، وهذا .

مسألة : ذكر الشيخ هنا أن الواجب في العلم أن يكون بالأدلة ، فقال رحمة الله في الرسالة الأولى : (الأولى : العلم ، وهو معرفة الله ، ومعرفة نبيه ، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة) وقال هنا (معرفة دين الإسلام بالأدلة) .

وهذه مسألة تعرف عند العلماء بمسألة التقليد في العقائد وأصول الدين هل يصح ، أم لا بد من معرفة الدليل ؟ وقد اختلف أهل العلم في ذلك على أقوال ، فمنهم من أوجب العلم بالدليل ، ومنهم من أوجب النظر ، ومنهم من أجاز التقليد مطلقاً ، ومنهم من أجازه مع الجزم ، ومنهم من فرق بين مسائل الاعتقاد الظاهرة ، والخفية^(١) .

والحق أنه لم يقم دليل صحيح صريح على وجوب الدليل ، أو النظر ، وعليه فالصحيح جواز التقليد إذا جزم صاحبه بذلك بأي وسيلة ، ولم يكن ذلك عن شك ، وتردد ، والله أعلم .

ويجدر التنبيه هنا أن هذه المسألة من المسائل التي جاء بها المتكلمون ، ولا تُعرف هذه المسألة عند الصحابة ، والتابعين ، وليس في الأدلة الشرعية ما يدل عليها بخصوصها ، والله أعلم .

قال النووي : الآتي بالشهادتين مؤمن حقاً ، وإن كان مقلداً على مذهب المحققين ، والجماهير من السلف ، والخلف ، لأنه يكتفى بالتصديق بما جاء به ، ولم يشترط المعرفة بالدليل .

وقال ابن تيمية رحمة الله : أما المسائل الأصولية فكثير من المتكلمة ، والفقهاء من أصحابنا ، وغيرهم ، من يوجب النظر والاستدلال على كل أحد ، حتى العامة ، والنساء... وأما جمهور الأمة فعلى خلاف ذلك ، فإن ما وجب علمه إنما يجب على من يقدر على تحصيل العلم ، وكثير من الناس عاجز عن العلم بهذه الدوائر ، فكيف يكلّف العلم بما ؟ وأيضاً فالعلم قد يحصل بلا نظر خاص ، بل بطرق أخرى ، من : اضطرار ، وكشف ، وتقليد من يعلم أنه مصيبة ، وغير ذلك .

وقال السفاريني رحمة الله : الحق الذي لا يحيى عنه ، ولا انفكاك لأحد منه ، صحة إيمان المقلد تقليداً حازماً صحيحاً ، وأن النظر والاستدلال ليسا بواجبين ، وأن التقليد الصحيح محصل للعلم والمعرفة .

وقد رجح شيخنا ابن عثيمين رحمة الله صحة التقليد في المسائل التي يُطلب فيها الجزم ، وأشار إلى أن القول بمنع التقليد في ذلك ضعيف .

واستدل من قال بجواز التقليد بقوله تعالى ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الْكِرْبَرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فاكتفى بالأمر بالسؤال فقط .

وبأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكن يأمر من شهد الشهادة عند إسلامه بحفظ الدليل عليها .

وأيضاً قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (من قال : أشهد إلا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله فقد عصم ماله ودمه إلا بحقه) فاكتفى بالشهادة ، ولم يذكر وجوب الدليل عليها ، أو وجوب النظر .

(١) وقد يخلط بعض من تكلم في المسألة بين كلام من منع ذلك من أهل السنة ، وبين كلام من منع ذلك من أهل الكلام في سبب منع التقليد ، كما يخلط بين الصور المذكورة هنا وعلى سبيل المثال فقد نقل الشيخ عبد الله أبا بطين الإجماع على أنه لا يجوز التقليد في أصول الدين ، ومرة ذكر أنه قول عامة أهل العلم ، لأن أدلةها ظاهرة ، وانظر الدرر السننية ج ٤ ص ١٤٣ و ١٢١ .

ومع ذلك قال الشيخ عبد الله أبا بطين في الدرر السننية ج ٤ ص ٣٣٩ : فرض على كل أحد معرفة التوحيد وأركان الإسلام بالدليل ، ولا يجوز التقليد في ذلك ، لكن العامي الذي لا يعرف الأدلة إذا كان يعتقد وحدانية رب سبحانه ، ورسالة محمد ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، والجنة ، والنار ، ويعتقد أن هذه الأمور الشركية التي تفعل عند هذه المشاهد باطلة وضلال ، فإذا كان يعتقد ذلك اعتقاداً حازماً لا شك فيه فهو مسلم ، وإن لم يترجم بالدليل ، لأن عامة المسلمين ولو لقنا الدليل فإنهم لا يفهمون المعنى غالباً .
فإنما جرى التنبيه ، حتى لا ينسب لأهل العلم ما لم يقصدوه .

وقال الشيخ عبد الرحمن البراك : وأما القول بتحريم التقليد في مسائل الاعتقاد فهو قول طوائف من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم ، وهو يقتضي أن عوام المسلمين آثمون ، أو غير مسلمين ، وهذا ظاهر الفساد .

وأما قول الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ومعرفة دين الإسلام بالأدلة) فهو كما قال ، فإن الواجب أن يعرف المسلم أمور دينه بأدلةها من الكتاب ، والسنة إذا كان مستطيعاً لذلك ، وهذا هو الواجب ، إما أن يكون فرض عين في مسائل ، وإما أن يكون فرض كفاية في مسائل أخرى .

وأصل دين الإسلام هو معرفة الله والإيمان به ، وهو يحصل بالنظر ، والاستدلال ، ويحصل بمقتضى الفطرة التي فطر الله الناس عليها إذا سلمت من التغيير ، وانختلف الناس في اشتراط النظر والاستدلال في معرفة الله ، وهل يصح إسلام العبد بدونه أو لا ؟ على مذهب ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية فقال : تنازع النظار في مسألة وجوب النظر المفضي إلى معرفة الله تعالى على ثلاثة أقوال : فقالت طائفة من الناس : إنه يجب على كل أحد .

وقالت طائفة : لا يجب على أحد .

وقال الجمهور : إنه يجب على بعض الناس دون بعض ، فمن حصلت له المعرفة لم يجب عليه ، ومن لم تحصل له المعرفة ولا الإيمان إلا به وجب عليه ، وذكر غير واحد أن هذا قول جمهور المسلمين ، كما ذكر ذلك أبو محمد بن حزم في كتابه المعروف (بالفصل في الملل والنحل) فقال في مسألة : هل يكون مؤمناً من اعتقد الإسلام دون استدلال أم لا يكون مؤمناً مسلماً إلا من استدل ؟

وفيه : قال سائر أهل الإسلام : كل من اعتقد بقلبه اعتقاداً لا يشك فيه ، وقال بسانه : أشهد إلا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن كل ما جاء به حق ، وبريء من كل دين سوى دين محمد ، فإنه مسلم ، مؤمن ليس عليه غير ذلك . انتهى مختصاراً من درء تعارض العقل والنقل ٤٠٥/٧-٤٠٧ أ.هـ

فأركان الإسلام خمسة : شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيت الله الحرام .

فدليل الشهادة : قوله تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

معناها : لا معبود بحق إلا الله ، (لا إله) نافياً جميع ما يعبد من دون الله ، (إلا الله) مثبتاً العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته ، كما أنه لا شريك له في ملكه .

وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيْمَهِ وَقَوْمِهِ إِنِّي بَرَأْءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فِيَانِه سَيِّهِدِينَ وَجَعَلَهَا كَلْمَةً بَاقِيَّةً فِي عَقْبِهِ لِعَلَمِهِ لِرَجْعَتِهِ ﴾ .

وقوله ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنُكُمْ أَلَا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ تَوْلُوا فَقُولُوا اشْهُدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

ودليل شهادة أن محمداً رسول الله : قوله تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله : طاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، واجتناب ما عنه هي وذر ، وألا يعبد الله إلا بما شرع .

ودليل الصلاة ، والزكاة ، وتفسير التوحيد : قوله تعالى ﴿ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْمِنُوا الزَّكَةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ .

ودليل الصيام : قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

ودليل الحج : قوله تعالى ﴿ وَلَلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : ذكر أركان المرتبة الأولى ، وهي مرتبة الإسلام ، وذكر الأدلة على كل ركن من هذه الأركان .

ذكر المصنف أن أركان الإسلام خمسة ، وذكرها مجملة ، ثم ذكر الأدلة على كون هذه الأمور من الأركان .

ودليلها الجامع حديث ابن عمر في الصحيحين قال رسول الله ﷺ : بني الإسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان .

ولما كان تركيز الشيخ وأساس تأليفه لهذه الرسالة هو توحيد العبادة ، فقد فصل في الركن الأول ، وهو الشهادتين ، وبين معناها ، ودليلها . وأما باقي الأركان فذكر دليلها فقط ، ومكان التفصيل فيها كتب الفقه .

قوله [فأركان الإسلام خمسة] . الإسلام له معنian :

١. الإسلام بالمعنى العام : وهو توحيد الله ، وطاعة الرسول في زمانه .

كما أخبر سبحانه في آيات كثيرة أن الشرائع السابقة كلها إسلام لله ، قال تعالى عن نوح (فإن توليتكم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن تكون من المسلمين) وقال تعالى عن إبراهيم ، وإسماعيل أَنْهَا قَالَا (ربنا واجعلنا مسلمين لك) وقال تعالى في حق لوط (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) وقال تعالى عن فرعون أنه قال عند معاينة الملائكة (قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) أي : المتبعين لموسى .

وعليه فاليهود مسلمون في زمن موسى ، والنصارى مسلمون في زمن عيسى ، إذا كانوا متعين لرسولهم ، وأما بعدبعثة فلا إلا أن يتبعوا شريعة محمد ﷺ قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

وقال ﷺ : والذي نفس محمد بيده ، لا يسمع ي أحد من هذه الأمة^(١) يهودي ، ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت إلا كان من أصحاب النار . رواه مسلم . وهذا هو الإسلام بالمعنى الخاص .

٢. الإسلام بالمعنى الخاص : وهو بعد بعثة النبي ﷺ ، لأنه نسخ جميع الأديان ، وهو المراد إذا أطلق .

قوله [فدليل الشهادة قوله تعالى ﴿ شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ... ﴾] .
الشهادة هي : الخبر القاطع .

وأطلق لفظ الشهادة على شهادة إلا إله إلا الله ، لأنها أعظم شهادة في الوجود ، على أعظم مشهود به ، فلا ينصرف الإطلاق إلا إليها .

فإنها لا شهادة أعظم ، ولا أجل ، ولا أثبت من شهادته لنفسه سبحانه بالألوهية .

وجه الدلالة من الآية : أن الله شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ، وكذلك الملائكة ، وأولو العلم .

قوله [ومعناها : لا معبد بحق إلا الله ، (لا إله) نافياً جميع ما يعبد من دون الله ، (إلا الله) مثبتاً العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته ، كما أنه لا شريك له في ملكه] .

هذا هو معنى شهادة التوحيد (لا معبد بحق إلا الله) فلا أحد يستحق العبادة إلا الله ، وكل ما عبد من دون الله فهو باطل ، قال تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

وأما من يقدّرها بقوله (لا يخلق ، ولا يرزق إلا الله) فهو تقدير باطل حال الاقتصار عليه ، أو (لا قادر على الاحتراع إلا الله) أو من يفسّرها بقوله (إخراج اليقين الفاسد من ذات الأشياء ، وإدخال اليقين الصادق على ذات الله) فكل هذه المعاني باطلة .

والجواب عن هذه المقولات الباطلة يأتي إن شاء الله مطولاً في شرح كتاب كشف الشبهات .

(١) المقصود أمة الدعوة ، لا أمة الإجابة .

قال الشيخ في كشف الشبهات : فالعجب من يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرف جهال الكفار ، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعانٰ ، والحادق منهم يظن أن معناها : لا يخلق ولا يرزق ، ولا يدير إلا الله .

فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعانٰ لا إله إلا الله أ.هـ

وذكر الشيخ هنا أن كلمة (لا إله إلا الله) قائمة على النفي ، والإثبات ، نفي العبادة عن كل من سوى الله ، وإثبات العبادة لله وحده ، لا شريك له في عبادته ، كما أنه لا شريك له في ملكه ، وسائر أفعاله .

قوله [وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يَوْضِحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾] .

وقوله ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَى كَلْمَةٍ سَوَاءٍ يَبْيَنُّكُمْ أَلَا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾] .

يتحمل أن يكون مراد الشيخ : تفسير ما ذكره من أن كلمة (لا إله إلا الله) قائمة على النفي ، والإثبات ، فذكر دليلين على ذلك : الآية الأولى ﴿ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ نفي ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ إثبات ، والآية الثانية ﴿ أَلَا تَعْبُدُ﴾ نفي ﴿ إِلَّا اللَّهُ﴾ إثبات .

ويتحمل أن يكون مراده : الكلام على وجوب البراءة من الشرك ، ومفاصلة أهله ، والله أعلم .

قوله [وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولَ اللَّهِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾] .

هذا دليل شهادة أن مُحَمَّداً رسول الله ، والأدلة على ذلك في القرآن كثيرة .

قوله [وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولَ اللَّهِ : طَاعَتْهُ فِيمَا أَمْرَ ، وَتَصْدِيقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ ، وَاجْتِنَابَ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجْرَ ، وَأَنْ لَا يَعْبُدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ] .

ذكر الشيخ في معنى شهادة أن مُحَمَّداً رسول الله أربعة أمور :

١. مقابلة أمره بالطاعة .

٢. مقابلة نهيه بالاجتناب .

٣. مقابلة خبره بالتصديق .

٤. الاكتفاء بشرعه في التعبد لله ، وترك البدع المحدثة .

وهذه الأربعة من لوازم الشهادة في الجملة ، فمن ترك بعض أفرادها فقد أنقص من تحقيق الشهادة بقدر ما نقص .

قال ابن القيم : الإيمان يرجع إلى أصلين : طاعة الرسول فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر .

— ثم ذكر المصنف بعد ذلك دليل الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج .

مسألة : هل الذي لا يتحقق ركناً من هذه الأركان يكون كافراً ؟

الجواب : تارك الشهادتين كافر بالإجماع ، وتارك الصلاة كافر على الصحيح ، بل نقل إجماع الصحابة على ذلك ، لكن العلماء اختلفوا في القدر الذي إذا تركه كفر به ، وال الصحيح والله أعلم أنه لا يكفر إلا إذا تركها تركاً كلياً ، كما اختار ذلك ابن تيمية ، وشيخنا ابن عثيمين .

وأما تارك الزكاة ، والصوم ، والحج فالصحيح أنه لا يكفر ، ولكنه ارتكب إثماً عظيماً ، وذنباً كبيراً ، نسأل الله السلامه والعافية^(١) .

قال ابن رجب رحمه الله : والمراد من هذا الحديث - يعني حديث ابن عمر (بني الإسلام على خمس) - أن الإسلام مبني على هذه الخمس ، فهي كالأركان والدعائم لبنيانه ، والمقصود تمثيل الإسلام ببنيان ، ودعائم البنيان هذه الخمس ، فلا يثبت البنيان بدورهما ، وبقية خصال الإسلام كتتمة البنيان ، فإذا فقد منها شيء نقص البنيان وهو قائم ، لا ينقض بنقص ذلك ، بخلاف نقص هذه الدعائم ، فإن الإسلام يزول بفقدتها جمياً غير إشكال ، وكذلك يزول بفقد الشهادتين ، وأما إقام الصلاة فقد وردت أحاديث مقصودة تدل على أن من تركها فقد خرج من الإسلام.... وذهب إلى هذا القول جماعة من السلف والخلف ... وذهب طائفة منهم إلى أن من ترك شيئاً من أركان الإسلام الخمسة عمداً أنه كافر بذلك ... وقال الشيخ حافظ حكمي في معراج القبور : فمن الأركان ما لا يتم البناء إلا به ، ومنها ما لا يقوم بالكلية إلا به .

(١) هناك رواية عن الإمام أحمد أن من ترك أحد المباني الخمسة فهو كافر .

المربطة الثانية : الإيمان ، وهو بضع وسبعون شعبة ، فأعلاها قول (لا إله إلا الله) وأدنىها إماتة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان .

وأركانه ستة : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره .
والدليل على هذه الأركان الستة ، قوله تعالى ﴿ لَيْسَ الْبَرُّ أَنْ تُوَلُوا وُجُوهَكُمْ قِبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبَرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالْبَيِّنَاتِ ﴾ .
ودليل القدر قوله تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : بيان المرتبة الثانية من مراتب الدين ، وهي مرتبة الإيمان ، وبيان أركانها ، والدليل على تلك الأركان .
قوله [الإيمان ، وهو بضع وسبعون شعبة^(١)] يراد به الإيمان بالمعنى العام فيدخل فيه الإسلام .
والإيمان له إطلاقان :

١. عام : ويراد به مراتب الدين الثلاثة ، وهو المقصود بقوله ﷺ : الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان^(٢) .
٢. خاص : وهو الإيمان بأركان الإيمان الستة ، كما في حديث عمر الآتي .
والبضع : بكسر الباء من الثلاثة إلى التسعة .
والشعبة : الطائفة من الشيء ، والقطعة منه .

(١) النصوص في ذكر عدد شعب الإيمان وردت بثلاثة ألفاظ :

أ. بضع وستون شعبة : وهذا ما أخرجه البخاري .

ب. بضع وسبعون شعبة : وهذا ما أخرجه مسلم وغيره .

ج. بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبة : وهذا ما أخرجه مسلم وغيره .

ولذلك اختلف العلماء في ذلك على قولين :

١. بضع وستون : لأن العدد الأقل ، وشك في الأكثر ، وهذا اختيار ابن حجر ، كما في الفتح .
٢. بضع وسبعون : لأنها زيادة من ثقة فضيل ، وهذا اختيار الترمذ .

(٢) هنا نص حديث أبي هريرة في صحيح البخاري ، وهو عند مسلم أيضًا بلفظ : الإيمان بضع وسبعون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان .

وفي لفظ آخر عند مسلم : الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبة ، فأفضلاها قول لا إله إلا الله ، وأدنىها إماتة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان .

وكذا جاء عند أبي داود بلفظ (أفضلاها قول : لا إله إلا الله) وعند النسائي بلفظ (أفضلاها : لا إله إلا الله) .

ولا يوجد في الكتب الستة هذا الحديث بلفظ (أعلاها قول : لا إله إلا الله) وإنما وجد عند الترمذى ، وابن ماجه بلفظ (وأرفعها قول : لا إله إلا الله) وكذا جاء في مستند أحمد .

قوله [وأركانه ستة : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره] .

١. الإيمان بالله : ويتضمن : الإيمان بوجوده ، وأنه واحد في ربوبيته وأفعاله ، وواحد في ألوهيته ، واستحقاقه العبادة وحده ، وأنه واحد في اسمائه وصفاته ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، والتذلل له بأنواع العبادات الواجبة ، والمستحبة ، وملازمة ذكره ، وتعليق القلب به في جميع الأمور .

٢. الإيمان بالملائكة : ويتضمن : الإيمان بوجودهم ، وأعمالهم ، وأوصافهم .

وهم عالم غيبي خلقهم الله من نور ، و وكلهم بأعمال ، وعددهم كثير لا يحصيهم إلا الله .

٣. الإيمان بالكتب : المراد الكتب المترلة من عند الله على رسله ، ويتضمن : الإيمان بأنها مترلة من عند الله ، والإيمان بما علمنا اسمه منها ، وتصديق ما صح من أخبارها ، واعتقاد أنها منسوخة كلها بالقرآن المترل على نبينا محمد ﷺ .

٤. الإيمان بالرسول : ويتضمن : الإيمان بأن رسالتهم حق من عند الله ، فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع ، قال تعالى ﴿كَذَّبُتْ قَوْمٌ نُوحٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ فجعلهم مكذبين بالجميع مع أنه لم يكن رسول غيره حين كذبواه .

والإيمان بما علمنا من اسمائهم ، وتصديق ما صح عنهم من أخبارهم ، والعمل بشرعية محمد ﷺ واعتقاد أنها ناسخة الجميع الرسالات .

٥. الإيمان باليوم الآخر : وهو يوم القيمة الذي لا يوم بعده ، ويتضمن : الإيمان بحصوله ، والإيمان بما يحصل فيه من أحوال وأمور عظيمة ، وما يحصل فيه من أحداث .

ومن الإيمان به : الإيمان بالجنة ، والجحش ، والحساب ، والميزان ، وغير ذلك مما هو معروف .

ومن الإيمان به : الإيمان بالجنة ، والنار ، وما فيها .

ويرى ابن تيمية أن اليوم الآخر يبدأ من موت الإنسان ، فيدخل فيه ما يحصل في سكريات الموت ، وما يحصل في القبر من نعيم وعذاب .

٦. الإيمان بالقدر خيره وشره : بأن يعلم ، ويعتقد أن كل شيء يحدث في هذا الكون قد سبق به قدر الله ، وأن الله عالم بهذه الأحوال قبل أن يخلق الخلق ، وأنه كتب ذلك كله ، وشاءه ، وخلقه .

والإيمان بالقدر يتضمن أربعة أمور ، وهي :

أ. العلم : وهو الإيمان بأن الله عالم بكل شيء جملة ، وتفصيلاً ، أولاً ، وأبداً ، سواءً ما يتعلق بأفعاله ، أو أفعال عباده .

ب. الكتابة : وهي الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ .

ودليل المرتدين : قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

ج. المشيئة : وهي الإيمان بأن كل ما يقع في الكون بمشيئة الله وقدره ، إما المشيئة الكونية القدريّة ، أو المشيئة الشرعية .

د. الخلق : وهو الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة الله تعالى بذواتها ، وصفاتها ، وحركاتها ، قال تعالى ﴿ اللَّهُ خَالقُ كُلِّ شَيْءٍ وَمَنْ ذَلِكَ أَفْعَالُ الْعِبَادِ ، قَالَ تَعَالَى ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

وهذا كلام مختصر عن أركان الإيمان الستة ، والتفصيل أكثر في شرح (الواسطية) إن شاء الله .

مسألة : هل أركان الإيمان مثل أركان الإسلام فيها أركان أساس ، وأركان تمام ؟

الجواب : لا ، فإذا تخلف ركن واحد منها كان صاحبه كافر كفراً أكبر ، والعياذ بالله .

المرتبة الثالثة : الإحسان ركن واحد ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

والدليل قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقُوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُون﴾ .

وقوله تعالى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقْلِبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

وقوله تعالى ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : بيان المرتبة الثالثة من مراتب الدين ، وهي مرتبة الإحسان ، وذكر الدليل عليه .

والإحسان لغة : مشتق من الحسن . ويطلق على الإتقان ، والإجادة ، لأن من أتقن ، وأجاد فقد أحسن^(١) .

والإحسان هو مقام المراقبة ، مراقبة العابد لربه جلا وعلا أثناء عبادته ، وفي أحواله كلها .

وتعظم مرتبة الإحسان بعظم مراقبة الله ، وتضعف بضعف مراقبة الله .

قال ابن رجب في فتح الباري : فهذه أعلى درجات الإيمان ومراتبه ، ويتفاوت المؤمنون ، والمحسنوون في تحقيق هذا المقام تفاوتاً كثيراً بحسب تفاوتهم في قوة الإيمان ، والإحسان .

ويقول ابن القيم : فحظ العبد من القرب من الله على قدر حظه من مقام الإحسان ، وبحسبه تتفاوت الصلاة حتى يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض ، وقيامهما ، وركوعهما ، وسجودهما واحد .

وقال التوسي في شرح مسلم : (الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) هذا من جوامع الكلم التي أورتها ﷺ لأننا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع ،

والخشوع ، وحسن السمت ، واجتماعه بظاهره ، وباطنه على الاعتناء بتسميمها على أحسن وجوهها إلا أنتي به ، فقال ﷺ

عبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان ، فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه ، فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه ، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد ، فينبغي أن يعمل بمقتضاه ، فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة ، ومراقبة العبد ربها تبارك وتعالى في إتمام الخشوع ، والخضوع ، وغير ذلك .

(١) قال ابن حجر : الإحسان هو مصدر ، تقول : أحسن يحسن إحساناً ، ويتعدى بنفسه ، وبغيره ، تقول : أحسنت كذا إذا أتقنته ، وأحسنت إلى فلان إذا أوصلت إليه النفع ، والأول هو المراد ، لأن المقصود إتقان العبادة .

وينبه هنا أن مقام الإحسان هو أعلى مراتب الدين ، خلافاً لما عليه طوائف المتصوفة من ذكر مراتب هي أقرب للبدعة منها إلى القرب من الله .

يقول ابن القيم : مقام الإحسان ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، ولا مشهد للعبد في الدنيا أعلى من هذا ، وعند كثير من الصوفية أن فوقه مشهداً أعلى منه ، وهو شهود الحق مع غيته عن كل ما سواه ، وهو مقام الفنا .
ويقول أيضاً : ولو كان فوق مقام الإحسان مقام آخر لذكره النبي ﷺ لجبريل ، ولسؤاله جبريل عنه ، فإنه جمع مقامات الدين كلها في الإسلام ، والإيمان ، والإحسان .

ويقول أيضاً : ولا تعتقد أن للسلوك وراء مقام الإحسان شيئاً أعلى منه .

وهذه المرتبة العظيمة لا يوصل إليها إلا بالمجاهدة ، ودوار الذكر ، يقول ابن القيم رحمه الله : ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان ، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت .

مسألة : يرى جمّع من أهل العلم أن تعريف الرسول ﷺ للإحسان تضمن مرتبتين :

١. مرتبة الاستحضار (المشاهدة) فستحضر في عبادتك أنك بين يدي الله .

٢. مرتبة الاطلاع (المراقبة) فتشعر أن الله مطلع عليك ويراقبك ، وهذا يورث أن تحسن العبادة .
ويجعلون الأولى : مرتبة طلب وشوق ، والثانية : مرتبة هرب وخوف .

ولذلك يجعلون المرتبة الأولى أفضل من المرتبة الثانية .

قال ابن رجب في فتح الباري : فهذان مقامان : أحدهما : مقام المراقبة ، وهو أن يستحضر العبد قرب الله منه ، واطلاعه عليه ، فيتخايل أنه لا يزال بين يدي الله ، فيراقبه في حركاته ، وسكناته ، وسره ، وعلانيته ، فهذا مقام المراقبين المخلصين ، وهو أدنى مقام الإحسان .

والثاني : أن يشهد العبد بقلبه ذلك شهادة ، فيصير كأنه يرى الله ويشاهده ، وهذا نهاية مقام الإحسان ، وهو مقام العارفين .
قال بعض السلف : من عمل الله على المشاهدة فهو عارف ، ومن عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص .

وقال ابن حجر : وإحسان العبادة : الإخلاص فيها ، والخشوع ، وفراغ البال حال التلبس بها ، ومراقبة العبود ، وأشار في الجواب إلى حالتين أرفعهما : أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه بعينيه ، وهو قوله (كأنك تراه) أي : وهو يراك ، والثانية : أن يستحضر أن الحق مطلع عليه ، يرى كل ما يعمل ، وهو قوله (إنه يراك) .

وقال شيخنا ابن عثيمين : فها هنا مرتبتان : المرتبة الأولى : أن تعبد الله كأنك تراه ، وهذه مرتبة الطلب .

والثانية : أن تعبد الله وأنت تعلم أنه يراك ، وهذه مرتبة المحب ، وكلتاها مرتبتان عظيمتان ، لكن الأولى أكمل وأفضل أ.هـ
ولكن الناظر في تعريف الرسول ﷺ للإحسان يلاحظ أنه مرتبة واحدة ، وهي مرتبة المراقبة لله عز وجل ، بأن يعبد الله كأنه يراه ، وهذا يورث الخضوع ، والخشوع ، والاستحضار ، وإتقان العبادة .

وأما قوله ﷺ (إإن لم تكن تراه ، فإنه يراك) فهذه كالوسيلة لتحقيق مرتبة المراقبة ، والله أعلم ، وارجع إلى كلام النووي السابق .

والدليل من السنة : حديث جبريل المشهور عن عمر رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأمسك ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ؟ فقال : أن تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتومني الركوة ، وتصوم رمضان ، وتحجج البيت إن استطعت إليه سبيلاً .
قال : صدقت . فعجبنا له بسؤاله ، ويصدقه .

قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر ، خيره وشره .
قال : صدقت .

قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .
قال : فأخبرني عن الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل .
قال : فأخبرني عن أمارتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة ، العراة ، العالة ، رعاة الشاء يتطاولون في البيان .

قال : ثم انطلق فلبثت مليأً ، ثم قال لي : يا عمر : أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . رواه مسلم

ذكر المصنف حديث جبريل الطويل دليلاً على مراتب الدين الثلاثة .

قال ابن رجب : هو حديث عظيم جداً ، يشمل على شرح الدين كله ، ولهذا قال ﷺ في آخره : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

وقال ابن دقيق العيد : هذا حديث عظيم ، اشتمل على جميع وظائف الأعمال الظاهرة والباطنة ، وعلوم الشريعة كلها راجعة إليه ، ومتشعبه منه ، لما تضمنه من جمعه علم السنة ، فهو كالآم للسنة .
والكلام عن هذا الحديث العظيم يأتي في شرح الأربعين النووية إن شاء الله .

الأصل الثالث : معرفة نبيكم محمد ﷺ ، وهو : محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، وهاشم من قريش ، وقريش من العرب ، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

وله من العمر ثلات وستون سنة ، منها : أربعون قبل النبوة ، وثلاث وعشروننبياً رسولاً .
نبي بـ (أقرأ) ، وأرسل بـ (المدثر) .
وبلد مكة ، وهاجر إلى المدينة .

بعثه الله بالندارة عن الشرك ويدعو إلى التوحيد ، والدليل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَانذِرْ * وَرَبَّكَ فَكِّبِرْ * وَثَيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ * وَلَرِبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ .
ومعنى ﴿قُمْ فَانذِرْ﴾ ينذر عن الشرك ، ويدعو إلى التوحيد .
﴿وَرَبَّكَ فَكِّبِرْ﴾ أي : عظمه بالتوحيد .
﴿وَثَيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي : طهر أعمالك عن الشرك .
﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرجز : الأصنام ، وهجرها : تركها وأهلها ، والبراءة منها ، وأهلها .
أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد ، وبعد العشر عرج به إلى السماء ، وفرضت عليه الصلوات الخمس ، وصلى في مكة ثلاث سنين ، وبعدها أمر باهجرة إلى المدينة .

خلاصة هذا المقطع : بيان الأصل الثالث وهو معرفة النبي ﷺ ، وذكر طرف من أخباره .

يقول ابن القيم في زاد المعاد : اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول ^(١) وما جاء به ، وتصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفرح ، لا في الدنيا ، ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل .
وخلاصة ما ذكره المصنف هنا هو : معرفة بعض من سيرة النبي ﷺ وهي بحسب ما ذكره تتضمن : معرفة اسمه ، ونسبه ، ومعرفة عمره ، ومعرفة بأي سورة نبا ، وبأي سورة أرسل ، ومعرفة بلده ، ومهاجرته ، ومعرفة موضوع رسالته ، ومعرفة سيرته إجمالاً بعد أن كلف بالرسالة .

قوله [وهو : محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم] .
اكتفى المؤلف بهذا القدر ، ثم انتقل إلى نسبة .

واسمي الكامل : محمد ، بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصي ، بن كلاب ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤي ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ، بن إلیاس ، بن مضر ، بن نزار ، بن معن ، بن عدنان .

أخرج هذا القدر من نسبة البخاري ، وهو الجمجم عليه بين العلماء ، أما ما بعده ف مختلف فيه .

يقول ابن القيم : إلى ها هنا معلوم الصحة ، متفق عليه بين النسائيين ، ولا خلاف فيه البتة ، وما فوق عدنان مختلف فيه ، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل .

وأشهر أسماءه ﷺ : محمد ، وأحمد .

قال ابن حجر : وأشهرهما محمد ، وقد تكرر في القرآن ، وأما أحمد فذكر فيه حكاية عن قول عيسى عليه السلام .
وقال القاضي عياض : كان رسول الله ﷺ أَحْمَدَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّداً ، كَمَا وَقَعَ فِي الْوُجُودِ ، لَأَنَّ تَسْمِيَتَهُ أَحْمَدٌ وَقَعَتْ فِي الْكِتَبِ السَّالِفَةِ ، وَتَسْمِيَتَهُ مُحَمَّداً وَقَعَتْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ حَمَدَ رَبَّهُ قَبْلَ أَنْ يَحْمِدَ النَّاسَ ، وَكَذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ يَحْمِدُ رَبَّهُ فَيُشَفِّعُهُ فِي حَمْدِ النَّاسِ .

ومعنى محمد : أي كثير الخصال التي يستحق عليها الحمد ، فتسميه بذلك من قبيل التفاؤل .

قال ابن القيم : فهو لكثرة ما فيه من الصفات (محمد) ولشرفها وفضلها على صفات غيره (أَحْمَدٌ) .
وله ﷺ أسماء أخرى ، وقد بوب البخاري على ذلك بقوله : باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ .

وذكر حديث حبیر بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أَحْمَد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله في الكفر ، وأنا الحاسر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب .

قال ابن حجر : والذي يظهر أنه أراد أن لي خمسة أسماء اختص بها لم يسم بها أحد قبلي ، أو معظمها ، أو مشهورة في الأمم الماضية ، لا أنه أراد الحصر فيها .

قال القاضي عياض : حمى الله هذه الأسماء أن يسمى بها أحد قبله ، وإنما تسمى بعض العرب محمداً قرب ميلاده لما سمعوا من الكهان ، والأحبار أن نبياً سيبعث في ذلك الزمان يسمى محمداً ، فرجعوا أن يكونوا هم ، فسموا أبناءهم بذلك ، وهم ستة لا سابع لهم .

وقال السهيلي : ثلاثة .

قال ابن حجر : وقد جمعت أسماء من تسمى بذلك في جزء مفرد ، بلغوا نحو العشرين ، لكن مع تكرر في بعضهم ، ووهم في بعض ، فيتخلص منهم خمسة عشر نفساً . هـ ثم عدتهم .

وقال ابن حجر : قال بعضهم : أسماء النبي ﷺ عدد أسماء الله الحسنى تسعة وتسعون اسمًا ، وقال : ولو بحث عنها باحث لبلغت ثلاثة اسم . قال ابن حجر معقبًا : وغالب الأسماء التي ذكرها وصف بها النبي ﷺ ولم يرد الكثير منها على سبيل التسمية .
وقال : ونقل ابن العربي في شرح الترمذ عن بعض الصوفية أن الله ألف اسم ، ولرسوله ألف اسم .

قال ابن القيم : وأما إن جعل له من كل وصف من أوصافه اسم تجاوزت أسماؤه المائتين ، كالصادق ، والمصدق ، والمعروف ، الرحيم ، إلى أمثال ذلك ، وفي هذا قال من قال من الناس : إن الله ألف اسم ، وللنبي ﷺ ألف اسم ، قاله أبو الخطاب بن دحية ، ومقصوده الأوصاف .

وقد عقد ابن القيم فصلاً في شرح معاني أسمائه ﷺ في كتابه (زاد المعاد) .

قوله [وهاشم من قريش ، وقريش من العرب ، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام] .

هذا هو نسب نبينا ﷺ وشاء الله أن يكون من أعلى ، وأظهر أهل الأرض نسباً ، وأشرفهم قوماً ، وقبيلة ، وفخداً .

وهكذا الأنبياء تبعث في أحساب قومها ، كما قال هرقل : وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها . متفق عليه وعند البخاري أيضاً : وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .

قال ابن حجر في الفتح : الظاهر أن إخبار هرقل بذلك بالجذم كان عن العلم المقرر عنده في الكتب السالفة .

وفي هذا يقول ﷺ : إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاً من بن هاشم . رواه مسلم

وأخواه ﷺ من بني زهرة ، فأمه : آمنة بنت وهب من بني زهرة .

وبنوا هاشم من أفضل قبائل العرب نسباً ، وقد بوب البخاري : باب : مناقب قريش . وذكر عدة أحاديث تدل على فضلهم.

وذكر الحافظ ابن حجر عدة أقوال في تسمية قريش ، ومن هو أول من تسمى بذلك . راجع الفتح [٦ / ٦١٧] . وكذلك ابن كثير في البداية والنهاية .

وقريش من العرب المستعربة ، لأن العرب عند أهل النسب قسمان :

١. عرب عاربة : وهم أصل العرب ، ويرجعون إلى قحطان ، وهؤلاء سكنوا اليمن ثم تفرقوا .

٢. عرب مستعربة : وهؤلاء يرجعون إلى عدنان ، إلى إسماعيل عليه السلام ، وهؤلاء لم يكونوا أصلاً من العرب ، لأن إسماعيل عليه السلام لم يكن من العرب أصلاً ، ولكن كما في القصة المشهورة لما تركه إبراهيم عليه السلام عند البيت نزلت بهم قبيلة جرهم ، أحد قبائل العرب ، فتعلم منهم العربية ، ونبغ فيهم .

وعليه فكل من كان قبل إسماعيل من العرب ، فهو من العرب العاربة ، وكل من كان بعد إسماعيل فهو من العرب المستعربة ، وأكثر قبائل العرب من هذا الجنس ، وهم أفضل ، لأن أفضل البشر منهم ^(١) .

(١) قال ابن تيمية في الجواب الصحيح : والناس متفقون على أن عدنان ولد إسماعيل ، وربعة ، ومضر ، وأما قحطان فقال بعضهم : هم أيضاً من ولد إسماعيل ، وال الصحيح أنهم كانوا موجودين قبل إبراهيم بأرض اليمن ، ومنهم جرهم الذين سكنوا مكة ، ومنهم تعلم إسماعيل العربية .

وقال في مجموع الفتاوی : وأكثر الناس على أنه من ولد هود ، ليسوا من ولد إبراهيم ، وقيل : إنهم من ولد إسماعيل لحديث أسلم لما قال : أرموا فإن أباكم كان راماً ، وأسلم من خزاعة ، وخزاعة من ولد إبراهيم .

وقال ابن كثير في قصص الأنبياء : ويقال : إن هوداً عليه السلام أول من تكلم بالعربية ، وزعم وهب بن منبه أن أباه أول من تكلم بها ، وقال غيره : أول من تكلم بها نوح ، وقيل : آدم ، وهو الأشيه ، وقيل غير ذلك .

وقال أيضاً : ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام العرب العاربة ، وهم قبائل كثيرة ، منهم عاد ، وثؤود ، وجهم وقحطان وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام أول من تكلم العربية الفصيحة البليغة ، وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم .

قوله [وله من العمر ثلاث وستون سنة ، منها : أربعون قبل النبوة ، وثلاث وعشرون نبياً رسولاً] .

أجمع أهل العلم على أن النبي ﷺ توفي له من العمر ثلاث وستون سنة ، وهذا ما ذكره ابن عباس ، وعائشة ، كما في الصحيحين ، وذكره أنس أيضاً ، كما عند مسلم .

قال ابن حجر في الفتح : ولم يختلفوا أنه استكمل سن النبي ﷺ فمات وهو ابن ثلاث وستين ، والله أعلم .

وعمره ﷺ على حالين :

أ. قبل النبوة وهو : أربعون سنة .

قال ابن القيم : بعثه الله على رأس الأربعين ، وهي سن الكمال ، قيل : ولها تُبعث الرسل .

ب. بعد أن كاننبياً ورسولاً وهو : ثلاث وعشرون سنة .

جاء في البخاري عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين .

وعن أنس قال : أنزل عليه وهو ابنأربعين . رواه البخاري

وأما قول أنس كما عند البخاري : أن النبي ﷺ لما نبئ بقى عشر سنين في مكة ثم عشراً في المدينة .

فيحمل على إلغاء الكسر ، وهو صنيع مشهور في لغة العرب .

وعمره ﷺ بعد أن بُعث مقسم على بلدتين :

أ. مكث في مكة ثلاث عشر سنة : منها ثلاث سنوات في الدعوة السرية ، وعشرين في الدعوة الجهرية ، والأذى .

ب. مكث في المدينة عشر سنين .

جاء في البخاري عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين .

قال النووي : واتفقوا أنه ﷺ أقام بالمدينة بعد الهجرة عشر سنين .

قوله [نبي بـ(اقرأ)، وأرسل بـ(المُدَّثِّر)] .

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة - وعند البخاري في رواية أخرى : الصالحة - في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حب إلى الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن يترعرع إلى أهله ، ويتوارد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لملتها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ... متفق عليه^(١)

فأول ما نزل على النبي ﷺ من القرآن فواتح سورة العلق (اقرأ باسم ربك الذي خلق....) وبها صارنبياً ﷺ وكل ما نزل من القرآن تلك الفترة لم يكن فيه أمر بالتبليغ .

ثم انقطع الوحي عن النبي ﷺ فترة ، ثم أنزل عليه فواتح سورة المدثر ، وبها صارنبياً ، وأمر بتبليل الدين .

جاء في الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : حاورت في حراء ، فلما قضيت حواري هبطت ، فاستبطنت الوادي ، فنوديت فنظرت أمامي ، وخلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، فإذا هو حالس على كرسى بين السماء والأرض ، فأتيت خديجة فقلت : دثروني ، وصبو علي ماء بارداً ، وأنزل علي (يا أيها المدثر * قم فأندر * وربك فكير) .

ولفظ مسلم : حاورت بحراء شهراً ، فلما قضيت حواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي ، فنوديت فنظرت أمامي ، وخلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، فلم نوديت فنظرت فلم أر أحداً ، ثم نوديت فرفعت رأسي ، فإذا هو على العرش في الهواء - يعني جبريل عليه السلام - فأخذتني رحفة شديدة ، فأتيت خديجة فقلت : دثروني ، فدثروني ، فصبو علي ماء ، فأنزل الله عز وجل (يا أيها المدثر * قم فأندر * وربك فكير * وثيابك فطهر) .

قال ابن تيمية : ونبأ الله على رأس أربعين سنة ، فأول ما أنزل الله عليه (اقرأ باسم ربك) فكاننبياً ، ثم أنزل الله عليه (يا أيها المدثر) فكان رسولاً .

وقال ابن القيم : أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذي خلق ، وذلك أول نبوته ، فأمره أن يقرأ في نفسه ، ولم يأمره إذ ذاك بتبليل ، ثم أنزل عليه (يا أيها المدثر * قم فأندر) فنبدأ بقوله (اقرأ)، وأرسله بـ(يا أيها المدثر) ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين ، ثم ينذر قومه ، ثم ينذر من حولهم من العرب ، ثم ينذر العرب قاطبة ، ثم ينذر العالمين ، فأقام بعض عشرة سنة بعد نبوته ، ينذر بالدعوة بغير قتال ، ولا جزية ، ويؤمر بالكف ، والصبر ، والصفح ثم أذن له في الهجرة ، وأذن له في القتال ، ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكتف عن اعتزله ولم يقاتل ، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله الله .

(١) قال ابن القيم : وأول ما بدئ به رسول الله ﷺ من أمر النبوة الرؤيا ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، قيل : وكان ذلك ستة أشهر ، ومدة النبوة ثلاثة عشر سنة ، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، والله أعلم .

قوله [وبلده مكة ، وهاجر إلى المدينة] .

ولد ﷺ في مكة ، وفيها أهله ، وعشيرته ، وكان يحبها ﷺ .

قال ابن القيم : ولا خلاف في أنه ولد في جوف مكة ، وأن مولده كان عام الفيل .

وأما عن مهاجمه : فقد هاجر ﷺ إلى المدينة ، وعاش فيها بقية عمره ، ومات ودفن فيها ، وتباركت المدينة بدخوله .

قول [بعثه الله بالندارة عن الشرك ويدعو إلى التوحيد ، والدليل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَانِدِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَتَيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنَنْ تَسْتَكْثِرْ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾] .

ومعنى ﴿قُمْ فَانِدِرْ﴾ ينذر عن الشرك ، ويدعو إلى التوحيد ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي : عظمه بالتوحيد ﴿وَتَيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي : طهر أعمالك عن الشرك ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرجز : الأصنام ، وهجرها : تركها وأهلها ، والبراءة منها ، وأهلها .

هذا هو أصل دعوة الرسل جميعاً : الدعوة إلى التوحيد ، والتحذير من الشرك ، قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) قال ابن حجر : يقول تعالى ذكره : وما أرسلنا يا محمد من قبلك من رسول إلى أمم من الأمم إلا نوحى إليه أنه لا معبد في السموات والأرض تصلح العبادة له سوى (فاعبدون) يقول : فأخلصوا لي العبادة ، وأفردوا لي الألوهه .

وقوله [وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ]. أي : عظمه بالتوحيد [] .

قال ابن حجر : يقول تعالى ذكره : وربك يا محمد فعظم بعبادته ، والرغبة إليه في حاجاتك دون غيره من الآلهة ، والأنداد .

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في موضع : يعني عظمه بالإخلاص ، وليس المراد تكبير الأذان أو غيره ، فإنه لم يشرع إلا في المدينة .

قوله [وَتَيَابَكَ فَطَهِّرْ]. أي : طهر أعمالك من الرجس [] .

هذا أحد التفاسير المنقولة عن السلف في معنى الآية .

قال قنادة : قوله (وَتَيَابَكَ فَطَهِّرْ) طهرها من المعاصي ، فكانت العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يف بعهد أنه دنس الثياب ، وإذا وفي وأصلاح قالوا : مطهر الثياب أ.هـ وهذا أنساب ، لأنه يناسب ما قبله ، وما بعده .

فإن ما قبله فيه الإنذار والتعظيم ، وما بعده فيه أمر بترك الرجز ، وهجر الأصنام ، والبراءة منها .

وقد جاء في الصحيحين : وأنزل علي ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَانِدِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ قبل أن تفرض الصلاة .

والقول الثاني : طهر ثيابك من النجاسة .

قال ابن القيم : وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هاهنا القلب ، والمراد بالطهارة : إصلاح الأعمال ، والأخلاق .

وقال ابن باز : أي : طهر أعمالك من الشرك ، لأن تطهير الملابس غير مراد في هذه الآية ، لأن الصلاة لم تفرض في ذلك الوقت ، فالمراد هنا الأعمال كما في قوله تعالى ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ فالعمل يسمى لباساً .

وقوله [والرُّجْزَ : الأَصْنَامِ]^(١)

جاء هذا التفسير في الصحيحين عن أبي سلمة راوي الحديث ، حيث قال : وهي الأوثان التي كان أهل الجاهلية يعبدون .
 قوله [أخذ على هذا عشر سنين ، يدعو إلى التوحيد ، وبعد العشر عرج به إلى السماء ، وفرضت عليه الصلوات الخمس ، وصلى في مكة ثلاثة سنين ، وبعدها أمر بالهجرة إلى المدينة] .

ظل ﷺ بعد الرسالة في مكة ثلاثة عشر سنة ، منها عشر سنوات يدعو إلى التوحيد .

وفي تلك العشر سنوات لم تفرض الفرائض ، لا الصلاة^(٢) ، ولا الصيام ، ولا غيرها ، ولم تحرم الخمر .

ثم بعد ذلك أسرى به إلى بيت المقدس ، ثم عرج به إلى السماء ، وفرضت عليه الصلوات الخمس ، وصلى في مكة ثلاث سنوات ، ثم هاجر إلى المدينة ، وفرضت عليه بقية الفرائض ، كما يأني قريباً من كلام المصنف إن شاء الله .

مسألة : كان فرض الصلاة في السنة العاشرة بعكة ، وصلى في مكة ثلاثة سنوات ، وأول ما فرضت الصلاة خمسون صلاة ، ثم خففت إلى خمس صلوات بأجر خمسين صلاة ، كما في الصحيحين (هي خمس وهي خمسون ، لا يبدل القول لدى) . وأول ما فرضت الصلاة ركعتان ، قالت عائشة : الصلاة أول ما فرضت ركعتان ، فأقررت صلاة السفر ، وأتمت صلاة الحضر . متفقة عليه .

وجاء عند ابن حبان بلفظ : فرضت صلاة السفر والحضر ركعتين ، فلما أقام رسول الله ﷺ بالمدينة زيد في صلاة الحضر ركعتان ، وترك صلاة الفجر لطول القراءة ، وصلاة المغرب لأنها وتر النهار .

قال ابن تيمية : وقد روي أن الصلاة أول ما فرضت كانت ركعتين بالغداة ، وركعتين بالعشى ، ثم فرضتخمس ليلة المراج ، وكانت ركعتين ركعتين ، فلما هاجر أقرت صلاة السفر ، وزيد في صلاة الحضر ، وكانت الصلاة تكمل شيئاً بعد شيء ، فكانوا أولاً يتكلمون في الصلاة ، ولم يكن فيها تشهد ، ثم أمروا بالتشهد ، وحرم عليهم الكلام ، وكذلك لم يكن بمكة لهم أذان ، وإنما شرع الأذان بالمدينة بعد الهجرة ، وكذلك صلاة الجمعة ، والعيد ، والكسوف ، والاستسقاء ، وقيام رمضان ، وغير ذلك إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة .

(١) فائدة : الفرق بين الصنم ، والوثن :

١- قيل : الصنم ما كان على هيئة صورة ، والوثن ما لم يكن على هيئة صورة . قال ﷺ (اللهم لا تجعل قيري وثناً يعبد) وهذا هو المشهور .

٢. وقيل : الصنم ما كان على هيئة صورة ، والوثن قد يكون على هيئة صورة ، وقد لا يكون .

وهذا القول أدق : قال تعالى عن إبراهيم ﷺ إنما تعبدون من دون الله أو ثانًا وتخلقون إفكًا فحضر ، وقد بين تعالى أن إبراهيم سأله عن عبادكم فقال ﴿ ما تعبدون * قالوا عبدُ أصناماً فَنَظَرَ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ .

قال ابن الأثير : الفرق بين الوثن ، والصنم : أن الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الأرض ، أو من الخشب والمحارة ، كصورة الآدمي تعمل وتنصب فتعبد ، والصنم صورة بلا جثة ، ومنهم من لم يفرق بينهما ، وأطلقهما على المعين .

وقد بطلة الوشم، علم غير الصورة، ومنه حديث عدي بن حاتم: قدمت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ في عنق صلب من ذهب، فقال له: ألم هذا الوشم عنك أهـ.

(٢) وقال بعض العلماء : بل كانت هناك صلاتان مفروضتان ، أحدهما أول النهار ، والثانية أول الليل ، كما في سورة طه « وَسَيِّدُ بِحَمْدِ رِبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا »

فقال ابن تيمية : قالوا : لأن الماء لامة لها ما يغفر له كعنة الغافر ، وكم عذاب العذاب

هذا ما ذكره المصنف من سيرة النبي ﷺ وهذا القدر لا يحسن ب المسلم الجهل به .

يقول ابن القيم في زاد المعاد : وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدى النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه ، وأحب بناها ، وسعادتها أن يعرف من هديه ، وسيرته ، وشأنه ما يخرج به عن الجاھلین به ، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته ، وحزبه ، والناس في هذا بين مستقل ، ومستكثر ، محروم ، والفضل بيد الله يؤتیه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وقد تكلم ابن القيم عن سيرة النبي ﷺ في كتابه البديع (زاد المعاد في هدي خير العباد) كلاماً طويلاً ، و Mataعاً يحسن الرجوع إليه .

وإنما للفائدة نذكر ما قاله باختصار مما يختص بسيرته قبل النبوة ، مما لا ينبغي لمسلم أن يجهل هذا القدر من سيرته ﷺ .

يقول رحمه الله : لا خلاف أنه ولد ﷺ بمکة ، وأن مولده كان عام الفيل^(١) و اختلف في وفاة أبيه عبدالله ، هل توفي رسول الله ﷺ حمل ، أو توفي بعد ولادته ، على قولين ، أصحهما أنه توفي رسول الله ﷺ حمل ، والثاني أنه توفي بعد ولادته بسبعة أشهر ، ولا خلاف أن أمه ماتت بين مکة والمدينة (بالأبواء) منصرفها من المدينة من زيارة أخواله ، ولم يستكمل إذ ذاك سبع سنين ، وكفله جده عبد المطلب ، وتوفي ولرسول الله ﷺ نحو ثمان سنين ، وقيل : ست ، وقيل : عشر ، ثم كفله عمّه أبو طالب ، واستمرت كفالته له ، فلما بلغ ثنتي عشرة سنة خرج به عمّه إلى الشام ، وقيل : كانت سنه تسع سنين فلما بلغ خمساً وعشرين سنة خرج إلى الشام في تجارة فوصل إلى بصرى^(٢) ثم رجع ، فتزوج عقب رجوعه خديجة بنت خويلد ، وقيل : تزوجها وله ثلاثون سنة ، وقيل : إحدى وعشرون ، وسنها أربعون ، وهي أول امرأة تزوجها ، وأول امرأة ماتت من نسائه ، ولم ينكح عليها غيرها فلما كمل له أربعون أشرف عليه نور النبوة ولا خلاف أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين^(٣) ، و اختلف في شهر المبعث ، فقيل : لثمان ماضين من ربيع الأول وهو قول الأكثرين ، وقيل : بل كان ذلك في رمضان أ.هـ

وأما وفاته ﷺ فكانت يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام عشرة من المحرّة ، على المشهور .

قال ابن كثير : لا خلاف من أنه ﷺ توفي يوم الاثنين ، والمشهور أنه في الثاني عشر من ربيع الأول .

وعليه فالذين يختلفون بموالده ﷺ يقال لهم : إن كان هذا يوم ولادته على المشهور ، فهو يوم وفاته على المشهور !.

(١) ولد ﷺ بمکة يتيم الأب ، يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول في العام المشهور بعام الفيل ، وهذا هو المشهور في يوم ولادته ، وقد روى ذلك ابن إسحاق بدون إسناد ، كما في سيرة ابن هشام ، فهو إذن ضعيف .

ولذلك يرى الباحث محمود باشا الفلکي أنه ولد في التاسع من ربيع الأول . [السيرة النبوية - لمهدی أحمد ص ١٠٩ -] الطبعة الأولى ، والله أعلم .

(٢) جنوب شرق دمشق ، تبعد عنها ١٤٠ كم .

(٣) جاء عند مسلم : سئل النبي ﷺ عن صيام يوم الاثنين ؟ فقال : ذلك يوم ولدت فيه ، وأنزل علي فيه .

والمigration : الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام .

والمigration فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام ، وهي باقية إلى أن تقوم الساعة .

والدليل قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمٍ أَنفُسَهُمْ قَالُوا فِيمَا كُنْتُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتَهَا جِرْوًا فِيهَا فَأَوْلَئِكَ مَا وَاهِمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَى الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوُلَادِ إِنَّ لَمْ يَسْتَطِعُوهُنَّ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأَوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوا غَفُورًا ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فِيَّا يَأْتِيَ فَاعْبُدُونِ ﴾ .

قال البغوي رحمه الله : سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين بعثة لم يهاجروا ، ناداهم الله باسم الإيمان^(١)

والدليل على الهجرة من السنة قوله ﷺ : لا تقطع الهجرة حتى تقطع التوبة ، ولا تقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها^(٢) .

خلاصة هذا المقطع : تعريف الهجرة ، وبيان حكمها ، والدليل عليها .

لما وصل المؤلف في الكلام عن سيرة النبي ﷺ إلى أنه أمر بالهجرة إلى المدينة ، استطرد فتكلم عن الهجرة ، فذكر تعريفها ، وحكمها - وهو الوجوب - ، وبقاء حكمها إلى قيام الساعة .

وذكر ثلات أدلة عليها :

الدليل الأول على وجوبها ، وذلك أن الله أخبر عن الذين تركوا الهجرة بأن مأواهم جهنم .

والدليل الثاني على أن تاركها لا يكفر ، كما قد يفهم من الآية الأولى ، ولهذا أردفها بكلام البغوي ليخبر أن هذا الدخول ليس دخولاً أبداً ، فترك الهجرة ليس كفراً ، لأنه خاطب به المسلمين .

والدليل الثالث على بقاء حكمها إلى يوم القيمة .

(١) وهذا الكلام ليس نص كلام البغوي ، وإنما حكايه بمعناه .

(٢) أخرجه أبو داود ، والنسائي ، وصححه الألباني في الإرواء .

والهجرة لغةً : مأخذة من المحرر ، والترك . وسمى المهاجرون مهاجرين ، لأنهم هجروا ديارهم ، وتركوها إلى غيرها .
وشرعاً : لها معنيان :

١. عام : ترك كل ما نهى الله عنه ، كما جاء عند البخاري من حديث عبد الله بن عمرو : والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه .
٢. خاص : الانتقال من بلد إلى بلد .

وقد ذكر ابن حجر في الفتح أن الهجرة وقعت في الإسلام على وجهين :

الأول : الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمان ، كما في هجرتي الحبشة ، وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة .
الثاني : الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان ، وذلك بعد أن استقر النبي ﷺ بالمدينة ، وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين ، وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال إلى المدينة إلى أن فتحت مكة فانتقطع الاختصاص أ.هـ

والهجرة من حيث مكانها تنقسم إلى قسمين :

١. هجرة عامة : وهي الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام . وهذه باقية إلى قيام الساعة .
٢. هجرة خاصة : الهجرة من مكة إلى المدينة . وهذه انتهت ، كما قال ﷺ (لا هجرة بعد الفتح) متفق عليه .

والهجرة من حيث الحكم تنقسم إلى قسمين :

١. واجبة : إذا لم يتمكن المسلم - المقيم بدار الكفر - من إظهار دينه ، وكان قادراً على الهجرة ، وعليه تحمل الآية المذكورة .

قال ابن هبيرة : واتفقوا فيما أعلم على وجوب الهجرة عن ديار الكفر لمن قدر على ذلك .

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره عند هذه الآية : نزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة ، وليس متمكاناً من إقامة الدين ، فهو ظالم لنفسه ، مرتكب حراماً بالإجماع ، وبنص هذه الآية .

وقال شيخنا ابن عثيمين : فهي واجبة على كل مؤمن لا يستطيع إظهار دينه في بلد الكفر ، فلا يتم إسلامه إذا كان لا يستطيع إظهاره إلا بالهجرة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

٢. مستحبة : إذا كان يستطيع أن يظهر دينه ، وكان قادراً على الهجرة ، وهذا قول الجمهور ، واختاره ابن قدامة ، وابن تيمية .

إلا إن كان في بقائه مصلحة ، وأمن على نفسه ودينه .

مسألة : ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالقدرة على إظهار الدين ، هو : القدرة على إعلان الشعائر ، مع إظهار العداوة والتبرؤ من دين المشركين ، ولا يكفي القدرة على إقامة الشعائر ، كالاذان ، والحجاب ، ونحو ذلك .

والذي يظهر أن ذلك راجع للمصلحة التي يقدرها العلماء ، بشرط عدم مجاملة الكفار بإظهار أن ما هم عليه حق ، أو جائز .
ويكفي أن يستدل بأن الصحابة الذين كانوا بداية الإسلام في مكة ، لم يكونوا يعلنون العداء لدين المشركين إلا عند الحاجة ، بل بعضهم يسلم ، ويختلط المشركين ، ولا يعلم الكثير بإسلامه ، وكذا الصحابة الذين كانوا في الحبشة ، لم يكونوا يعلنون العداء لدين النصارى ، والله أعلم .

مسألة : ما هو ضابط بلاد الكفر ؟

اختلف أهل العلم في هذه المسألة اختلافاً كثيراً .

وأقرب الأقوال والله أعلم ما قاله الشيخ محمد بن إبراهيم : هي التي يظهر فيها الكفر ويكون غالباً .

وقال شيخنا : هو الذي تقام فيه شعائر الكفر ولا تقام فيه شعائر الإسلام ، كالاذان ، والصلوة جماعة ، والأعياد ، والجمعة على وجه عام وشامل . وإنما قلنا على وجه عام وشامل ليخرج ما تقام فيه هذه الشعائر على وجه محصور ، كبلاد الكفار التي فيها أقليات مسلمة ، فإنها لا تكون بلاد إسلام بما تقيمه الأقليات المسلمة فيها من شعائر الإسلام أ.هـ

فائدة : قال ابن تيمية : رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيماناً من غيرهم من جرد الإسلام .
وانظر تكرماً حكم الإقامة في بلاد الكفار ، وحكم السفر إليها ، في مجموع الفتاوى لشيخنا ابن عثيمين ج ٦ ص ١٣٣ .

فلما استقر في المدينة أمر ببقية شرائع الإسلام ، مثل : الزكاة ، والصوم ، والحج ، والأذان ، والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغير ذلك من شرائع الإسلام .
أخذ على هذا عشر سنين ، وبعدها توفي^(١) صلوات الله وسلامه عليه ، ودينه باقٍ .

خلاصة هذا المقطع : بيان شرائع الإسلام التي شرعت في المدينة خلال العشر سنوات التي قضتها عليها في المدينة حتى توفاه الله . ذكر المصنف أن عامة شرائع الإسلام لم تشرع إلا في المدينة ، وهذا من رحمة الله أن أخر فرض هذه الواجبات إلى أن هاجر عليها المؤمنون ، واستقر الأمر ، وأمن الناس .
وأكثر هذه الشرائع فرضت في السنة الثانية من الهجرة ، كالاذان ، والصوم ، والزكاة .
وما الحج ففي السنة التاسعة على الصحيح .

قال شيخنا : والظاهر أن الجماعة كذلك لم تفرض إلا في المدينة ، لأن الذي فيه الدعوة للجماعة - يعني الأذان - فرض السنة الثانية .

وظاهر كلام المصنف أن الزكاة فرضت في المدينة ، والمقصود : أن أصل الزكاة كان مشروعاً في مكة ، كما قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية ﴿ وَآتُوا حِقَهُ يَوْمَ حِصَادِهِ ﴾ وفي سورة المعارج وهي مكية ﴿ وَالَّذِينَ فِي أُمُوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِسَائِلٍ وَالْمَحْرُومُ ﴾ .

وأما طلبها ، وذكر الأموال الزكوية ، وتقدير أنها ، وبيان أنها فكان بالمدينة في السنة الثانية .
وقد فرضت بعد زكاة الفطر ، لقول قيس بن سعد : أمرنا رسول الله عليه بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت الزكاة لم يأمرنا ولم ينها ، ونحن نفعله . رواه النسائي ، وصححه الألباني .
وقد بوب النسائي عليه بقوله : باب : فرض صدقة الفطر قبل نزول الزكاة .

وفي هذا دليل على أن زكاة المال - بأنصبتها ، وبيان أنها - إنما فرضت في المدينة ، لأنه لا شك أن زكاة الفطر فرضت في المدينة ، لأن صوم رمضان ما فرض إلا في السنة الثانية من الهجرة بالإجماع .

وأما قوله (والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فهذا فيه إشكال ، إذ كان عليه مأموراً وجوباً بالدعوة إلى التوحيد ، والنهي عن الشرك ، وهو في مكة ، وكذلك بالأمر بالصلوة قبل المحرجة !
لكن ربما يكون المراد به عموم المسلمين ، لأنه في مكة قبل منهم كتمان الدين ، والله أعلم .

قوله [ودينه باقٍ] وذلك أن هذا الدين ، هو الدين الذي ارتضاه الله للناس إلى قيام الساعة ، فلا يحتاج الناس في مصالحهم ، ومعاشرهم ، ومعادهم إلا الامتثال لهذا الدين الخاتم ، قال تعالى ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ومن ابتعى الفلاح والرفعة بغيره أكبه الله على وجهه خاسراً ولو بعد حين .

(١) توفي : لما ضبطان صحيحان ، بضم التاء ، وفتحها ، والأشهر عند اللغويين الضم ، ويكون المعنى : استوفى الله أجله .

وبالفتح يكون المعنى : استوفى عمره في هذه الدنيا .

وذكر شيخنا في المتمع في كتاب العدد أن اللفظان جائزان ، لكن بالفتح لغة ضعيفة جداً ، والمعنى : استوفى أجله ، ورزقه ، واستكمله .

وهذا دينه لا خير إلا دل الأمة عليه ، ولا شر إلا حذرها منه .
والخير الذي دل عليه : التوحيد ، وجميع ما يحبه الله ، ويرضاه .
والشر الذي حذر منه : الشرك ، وجميع ما يكرهه الله ، ويأباه .

خلاصة هذا المقطع : بيان عظمة الدين الذي جاء به النبي ﷺ وكماله .

بعد أن ذكر المصنف أن دين النبي ﷺ باقٍ إلى قيام الساعة ، بين السبب الذي من أجله ارتضى الله هذا الدين للناس إلى قيام الساعة ، وذلك أن الله أكمل هذا الدين وأتمه ، فما من خير إلا ودل عليه ، وما من شر إلا وحذر منه ، فلا يحتاج الناس بعد ذلك إلى غيره ، لا في مصالح الدنيا ، ولا في مصالح الدين ، قال تعالى ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأحكام .

قال ابن القيم : قد تم الله سبحانه الدين بنبئه ﷺ وأكمله به ، ولم يحوجه ، ولا أنته بعده إلى عقل ، ولا نقل سواه ، ولا رأي ، ولا منام ، ولا كشوف ، قال تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمُ الْإِسْلَامُ دِيْنَكُمْ ﴾ وأنكر على من لم يكتف بالوحي عن غيره فقال ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ يُتَلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذَكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وقال السعدي : فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم ، وأحكامهم إلى غير علوم الكتاب والسنة ، من علم الكلام وغيره ، فهو جاهل ، مبطل في دعوه ، فقد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قال ودعا إليه ، وهذا من الظلم ، والتجهيل لله رسوله أ.هـ

وأعظم ما دل عليه النبي ﷺ هو التوحيد ، وأعظم ما حذر منه الشرك .

قال ابن القيم في إعلام الموقعين : وقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علماً ، وعلمه كل شيء حتى آداب التخلصي ، وآداب الجماع ، والنوم ، والقيام ، والقعود ، والأكل ، والشرب ، والركوب ، والتزول ، والسفر ، والإقامة ، والصمت ، والكلام ، والعزلة ، والخلطة ، والغنى ، والفقر ، والصحة ، والمرض ، وجميع أحكام الحياة ، والموت ، ووصف لهم العرش ، والكرسي ، والملائكة ، والجهن ، والنار ، والجنة ، ويوم القيمة ، وما فيه حتى كأنه رأى عين ، وعرفهم معبودهم وإلههم أتم تعريف حتى كأنهم يرونهم ويشاهدونه بأوصاف كماله ، ونوعات جلاله ، وعرفهم الأنبياء وأئمهم ، وما جرى لهم ، وما جرى عليهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم ، وعرفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرفه نبي لأمته قبله ، وعرفهم ﷺ من أحوال الموت ، وما يكون بعده في البرزخ ، وما يحصل فيه من النعيم ، والعذاب للروح والبدن ما لم يعرف به نبي غيره ، وكذلك عرفهم ﷺ من أدلة التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، والرد على جميع فرق أهل الكفر ، والضلال ما ليس من عرفه حاجة من بعده ، اللهم إلا إلى من يبلغه إياه ، ويبينه ويوضح منه ما خفي عليه ، وكذلك عرفهم ﷺ من مكايد الحروب ، ولقاء العدو ، وطرق النصر ، والظفر ما لو علموه ، وعقلوه ، ورعنوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبداً ، وكذلك عرفهم ﷺ من مكايد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها وما يتحرزون به من كيده ، ومكره

، وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه ، وكذلك عرفهم ﷺ من أحوال نفوسهم ، وأوصافها ، ودسائسها ، وكمائنها ما لا حاجة لهم معه إلى سواه ، وكذلك عرفهم ﷺ من أمور معايشهم ما لو علموه ، وعملوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة. وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمتها ، ولم يجعلوهم الله إلى أحد سواه ، فكيف يظن أن شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعة أكمل منها ، ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملاها ، أو إلى قياس ، أو حقيقة ، أو معقول خارج عنها ؟! ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن الناس حاجة إلى رسول آخر بعده ، وسبب هذا كله خفاء ما جاء به على من ظن ذلك ، وقلة نصيه من الفهم الذي وفق الله له أصحاب نبيه الذين اكتفوا بما جاء به ، واستغثوا به عمما سواه ، وفتحوا به القلوب ، والبلاد ، وقالوا : هذا عهد نبينا إلينا ، وهو عهدهنا إليكم ، وقد كان عمر رضي الله عنه يمنع من الحديث عن رسول الله ﷺ خشية أن يشتغل الناس به عن القرآن ، فكيف لو رأى اشتغال الناس بآرائهم ، وزبد أفكارهم ، وزبالة أذهانهم عن القرآن والحديث ؟ فالله المستعان .

وقد قال الله تعالى (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمّنون) وقال تعالى (ونزلنا عليك الكتاب بياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) وقال تعالى (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) وكيف يشفى ما في الصدور كتاب لا يفي هو وما تبينه السنة عشر معشار الشريعة ؟ أم كيف يشفى ما في الصدور كتاب لا يستفاد منه اليقين في مسألة واحدة من مسائل معرفة الله ، وأسمائه وصفاته ، وأفعاله ؟ أو عامتها ظواهر لفظية دلالتها موقوفة على انتفاء عشرة أمور لا يعلم انتفاءها ، سبحانه هذا بكتاب عظيم ، ويا الله العجب ، كيف كان الصحابة والتبعون قبل وضع هذه القوانين التي أتى الله بنياها من القواعد ، وقبل استخراج هذه الآراء ، والمقاييس ، والأوضاع ؟ أهل كانوا مهتمدين ، مكتفين بالنصوص ، أم كانوا على خلاف ذلك ؟ حتى جاء المتأخرن فكانوا أعلم منهم ، وأهدى ، وأضبط للشريعة منهم ، وأعلم بالله ، وأسمائه ، وصفاته ، وما يجب له ، ويمتنع عليه منهم ؟ فوالله لأن يلقى الله عبده بكل ذنب ما خلا الإشراك خير من أن يلقاه بهذا الظن الفاسد ، والاعتقاد الباطل أ.هـ

بعنه الله إلى الناس كافة ، وافتراض طاعته على جميع الشَّقْلِين^(١) : الجن ، والإنس . والدليل قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ .

وأكمل الله به الدين ، والدليل قوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ .

والدليل على مorte ﷺ قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيْتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِّمُونَ ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : بيان عموم رسالة النبي ﷺ ووجوب طاعته على جميع الإنس والجن ، وبيان كمال الدين قبل مorte . والدليل على أن رسالة النبي ﷺ عامة للأنس والجن ، والعرب والعجم ، والأبيض والأسود ، وأنها ناسحة لجميع الديانات ، قوله تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) وقال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وقال تعالى (وما أرسلناك إلا كافية للناس بشيراً ونذيراً) .

وعن حابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغائم ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة . متفق عليه ، وهذا لفظ البخاري .

وعند مسلم : كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر ، وأسود . ثم ذكر المصنف الدليل على إكمال الدين به ، والدليل على مorte .

وبهذا يكون المصنف قد انتهى من الكلام عن هذا الأصل الثالث ، وهو معرفة النبي ﷺ .

(١) فائدة : قال شيخنا ابن عثيمين : سموا بالشَّقْلِين لكثره عدهم .

والناس إذا ماتوا يعيشون ، والدليل قوله تعالى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا تُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ .

وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ .

وبعدبعث محاسبون ، ومحزيون بأعمالهم ، والدليل قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاعُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ .

ومن كذب بالبعث كفر ، والدليل قوله تعالى ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ لَنْ يُيَعْثُوا حُكْمُ بَلَى وَرَبِّي لَتُعَذَّنَ ثُمَّ كَتَبَنَا بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ .

من هنا بدأ الجزء الثالث من هذه الرسالة المفيدة ، وهو عبارة عن مسائل متفرقة .

وخلاله هذا المقطع : إثبات البعث ، والمحاسبة ، والجازاة ، وذكر الأدلة على ذلك ، وبيان حكم التكذيب بذلك .

بعد أن أنهى المؤلف الكلام عن الأصل الثالث بذكر الدليل على موته ﷺ بدأ في الكلام عن الموت ، والبعث ، والحساب ، وذكر أن من كذب بذلك فهو كافر ، وذكر الدليل عليه .

قال ابن قاسم : إنكار البعث هو من أعظم كفر أهل الجahلية^(١) .

والكلام والتفصيل في هذه المراحل وغيرها من أمور الآخرة يأتي إن شاء الله في شرح (الواسطية) .

(١) هناك ثلاثة آيات أمر الله نبيه ﷺ بأن يقسم فيها على وقوع العاد ، وهي :

١. قوله تعالى ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُعَذَّنَ﴾ .
٢. قوله تعالى ﴿وَيَسْتَبِينُوكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِنِّي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ .
٣. قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِنَنُكُمْ﴾ .

وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ، ومنذرين ، والدليل قوله تعالى ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ .

وأولهم نوح عليه السلام ، وآخرهم محمد ﷺ وهو خاتم النبيين .

والدليل على أن أولهم نوح ، قوله تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْنَا نُوحٌ وَالنَّبِيُّنَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ .

وكل أمة بعث الله إليها رسولاً من نوح إلى محمد ، يأمرهم بعبادة الله وحده ، وبنهاهم عن عبادة الطاغوت .

والدليل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : أن الله قد أقام الحجة على عباده بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وبيان أن أصل رسالة المرسلين : الدعوة إلى عبادة الله وحده ، والكفر بالطاغوت ، كما قال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن عبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) .

وقوله [وأولهم نوح] أول الرسل نوح ، كما في الآية التي ذكرها المصنف ، وكما في حديث الشفاعة (يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض) متفق عليه .

وقوله [وآخرهم محمد ﷺ ، وهو خاتم النبيين] كما تواترت الآيات والأحاديث بذلك ، قال تعالى ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّنَ﴾ وأما عيسى إذا نزل فإنه يحكم بشرعية محمد ﷺ .

فائدة : أفضل الأنبياء : الرسل ، وأفضل الرسل : الخمسة أولوا العزم ، وأفضل الخمسة محمد ﷺ بالإجماع ، ثم إبراهيم .
ثم وقع الخلاف في الثلاثة الباقيين .

فقال ابن حجر : أفضلهم بعد إبراهيم ، موسى ، ثم عيسى ، ثم نوح .

وقال شيخنا في شرح معة الاعتقاد : ثم نوح ، وعيسى لا يجزم بالمقارنة بينهما ، لأن لكل منهما مزية .

مسألة : ما الفرق بين النبي ، والرسول ؟

ذهب بعض أهل العلم إلا أنه لا فرق بينهما ، وال الصحيح أن بينهما فرقاً ، بدليل قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٌّ ... ﴾ وللحديث الوارد في عدد الأنبياء ، والرسول^(١) .

وذكر العلماء فروقاً بينهما ، من أشهرها :

أن النبي من أُوحى إليه بِوْحِيٍّ ولم يُؤْمِرْ بِتَبْلِيغِهِ ، والرسول مِنْ أُوحى إِلَيْهِ بِوْحِيٍّ وَأُمِرَّ بِتَبْلِيغِهِ .
كما كان نبياً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَرْوِيلِ سُورَةِ الْعَلْقِ ، وَرَسُولًا بِتَرْوِيلِ سُورَةِ الْمَدْثُرِ .

أو أن النبي من جاء مجدداً لشريعة من قبله ، والرسول من جاء بشرع جديد .

أو أن النبي من أرسل إلى قوم مؤمنين ، يذكرهم بدينهم ، وربما جاءهم بشرع جديد ، والرسول من أرسل إلى قوم كفار خالفوه كلهم ، أو بعضهم ، وهذا اختيار ابن تيمية كما في كتاب (النبوات) ^(٢) .

(١) قال أبو ذر : قلت يا رسول الله : كم وفاء عدة الأنبياء ؟ قال : مائة ألف ، وأربعة وعشرون ألفا ، والرسل من ذلك : ثلاثة وخمسة عشر ، جماً غفيراً . صحيحه الألباني في مشكاة المصابيح .

قال ابن حجر في الفتح : وقع في ذكر الأنبياء حديث أبي ذر مرفوعاً : ألم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ، صاححة ابن حبان أ.هـ
 قال ابن تيمية في كتاب (النبوات) : فالنبي هو الذي يبنيه الله وهو يبني بما أنبأ الله به ، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول ، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول ، قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٌّ إِلَّا أَذْتَمَنَّ أَلْقى الشيطان فِي أَمْيَنِهِ) وقوله (من رسول ولانبي) فذكر إرسالاً يعم النبوتين ، وقد خص أحد هما بأنه رسول ، فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبيين رسالته إلى من خالف الله ، كثون . وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بُعث إلى أهل الأرض ، وقد كان قبله أنبياء ، كثيث ، وإدريس ، وقبلهما آدم كان نبياً مكلماً ، قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام . فأولئك الأنبياء يأتينهم وهي من الله بما يغلوونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم ، لكونهم مؤمنين بهم ، كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقللون ما يبلغه العلماء عن الرسول . وكذلك أنبياء بني إسرائيل يأمرون بشريعة التوراة ، وقد يوحى إلى أحدهم وهي خاص في قصة معينة ، ولكن كانوا في شرع التوراة كالعالم الذي يفهمه الله في قضية معنى يطابق القرآن ، كما فهم الله سليمان حكم القضية التي حكم فيها هو وداد .

فَالْأَنْبِيَاءُ يَنْبَهُمُ اللَّهُ فِيهِمْ بِأَمْرِهِ، وَبِنَهْيِهِ، وَبِخِرْبِهِ، وَهُمْ يَنْهَوْنَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنْبَاهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ، وَالْأَمْرِ، وَالنَّهْيِ، فَإِنَّ رَسُولًا إِلَى كُفَّارٍ يَدْعُوكُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا بدَ أَنْ يُكَذِّبَ الرَّسُولَ قَوْمٌ، قَالَ تَعَالَى (كَذَّلِكَ مَا أَنْبَاهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) وَقَالَ (مَا يُقَاتِلُكُمْ إِلَّا مَا قَدْ فَيَلَى لِلرَّسُولِ مِنْ قَبْلِكُمْ إِنَّ رَبَّكُمْ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَمَوْعِدَ أَلِيمٍ) فَإِنَّ الرَّسُولَ تَرَسَّلَ إِلَى مُخَالَفِيهِنَّ فِي كُنْدِمِهِمْ بِعَهْدِهِمْ . وَقَالَ تَعَالَى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكُمْ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ أَفَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيُنَظِّرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْأُخْرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آتَقْعُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ، حَتَّى إِذَا اسْتَيْشَسَ الرَّسُولُ وَظَنَّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُلُّبُوا جَاءُهُمْ نَصْرٌ ثُمَّ فَنَجَّيَ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يُرِدُّ بِأَسْنَاهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) وَقَالَ (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَّنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ).

وافتراض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : **الطاغوت** : ما تجاوز به العبد حده من معبد ، أو متبع ، أو مطاع . والطاغيت كثيرون ، ورؤوسهم خمسة : إبليس لعنه الله ، ومن عبد وهو راض ، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه ، ومن ادعى شيئاً من علم الغيب ، ومن حكم بغير ما أنزل الله .

والدليل قوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهٌ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرُ بِالظَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرُوهَ الْوُتْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَاٰ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهذا معنى (لا إله إلا الله) .

وفي الحديث [رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنته الجهاد في سبيل الله] .
والله أعلم ، وصلى الله على محمد ، وعلى آله ، وصحبه ، وسلم .

خلاصة هذا المقطع : تعريف الطاغوت ، وذكر رؤوسه ، وحكم الكفر به ، ثم ختم الرسالة .

لما ذكر المصنف أن موضوع رسالة الرسل هو الأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة الطاغوت ، بدأ في الكلام عن الطاغوت ، فذكر تعريفه ، ورؤوسه ، وحكم الكفر به .

والطاغوت لغة : صيغة مبالغة مشتقة من الطغيان ، والطغيان تجاوز الحد . ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّا لَمَّا طَعَى الْمَاءُ حَمَلْنَا كُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ يعني : زاد عن الحد المعتاد .

وشرعاً : اختلفت عبارات العلماء في تعريفه ، فقيل : الشيطان ، وقيل : الساحر ، وقيل الكاهن ، وقيل : كل ما عبد من دون الله ، وقيل غير ذلك ^(١) .

ويلاحظ في هذه التعريف أنها من باب تفسير الشيء ببعض أفراده ، وأما التفسير الجامع للطاغوت فهو ما قاله ابن القيم في إعلام الموقعين : **والطاغوت** : كل ما تجاوز به العبد حده من معبد ، أو متبع ، أو مطاع ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله .

فهذه طاغيت العالم إذا تأملتها ، وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم عدواً من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت ، وعن التحاكم إلى الله ، وإلى الرسول ، إلى التحاكم إلى الطاغوت ، وعن طاعته ومتابعته رسوله ، إلى طاعة الطاغوت ومتابعته أ.هـ .
وقال ابن حجر الطبرى بعد أن ذكر عدة أقوال عن السلف في معنى الطاغوت : والصواب من القول عندي في الطاغوت أنه كل ذي طغيان على الله ، فعبد من دونه ، إما بقهر منه لمن عبده ، وإما بطاعة من عبده له ، وإنساناً كان ذلك المعبد ، أو شيطاناً ، أو وثنًا ، أو صنماً ، أو كائناً ما كان من شيء .

(١) قال الواحدى : الطاغوت يكون واحداً ، وجمعًا ، ويؤنث ، ويدرك .
قال الله تعالى (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) فهذا في الواحد .
وقال تعالى في الجمع (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ينحرجهم) .
وقال في المؤنث (والذين اجتباوا الطاغوت أن يعبدوها) .

وقال ابن حرير أيضاً : والصواب من القول في تأويل (يؤمنون بالجحث والطاغوت) أن يقال : يصدّقون بمعبودين من دون الله ، يعبدونهما من دون الله ، ويتحذنونهما إلهين .

وذلك أن الجحث ، والطاغوت : اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله ، أو طاعة ، أو خضوع له ، كائناً ما كان ذلك العظيم ، من حجر ، أو إنسان ، أو شيطان ، وإذا كان ذلك كذلك ، وكانت الأصنام التي كانت الجاهلية تعبدوها ، كانت معظمها بالعبادة من دون الله ، فقد كانت جُبتواً ، وطواحيت ، وكذلك الشياطين التي كانت الكفار تطيعها في معصية الله ، وكذلك الساحر ، والكافر ، والكاهن اللذان كان مقبولاً منهما ما قالا في أهل الشرك بالله ، وكذلك حبي بن أخطب ، وكعب بن الأشرف ، لأنهما كانوا مطاعين في أهل ملتهما من اليهود في معصية الله ، والكافر به وبرسوله ، فكانا جبتيين وطاغوتين أ.هـ

وعليه فالطاغوت باعتبار أنواعه لا يخرج عن ثلاثة أنواع :

١. طواحيت العبادة : بكل ما عبد من دون الله وهو راضٍ فهو طاغوت .

٢. طواحيت الإتباع : ومنهم : علماء السوء ، وأصحاب الطرق^(١) .

٣. طواحيت الطاعة : ومنهم : السلاطين الذين يأمرن الناس بأوامر مخالفة للشرع .

وأما الطاغوت باعتبار أفراده فكثير ، لكن رؤوس هؤلاء الأفراد خمسة كما ذكر المصنف هنا :

أ. إبليس : وهو أكبر الطواحيت على الإطلاق ، وذلك لأنه جمع معانٍ كثيرة من معاني الطاغوت ، فهو يدعى إلى عبادة نفسه ، وإلى عبادة غيره ، ويدعو إلى تغيير أحكام الله ، ويعين من يدعى علم الغيب ، فهو رأسهم لأنه عبد ، ولأنه متبع ، ولأنه مطاع ، وهو راض بكل ذلك .

وقد نص غير واحد من السلف على أن الطاغوت هو الشيطان ، كما نقله الطبراني وغيره عنهم ، من أشهرهم عمر بن الخطاب ، وقد ذكره البخاري أيضاً عن عمر .

ب. من عبد وهو راضٍ : بأي نوع من أنواع العبادة ، كمن ذبح له ، أو أستغاث به ، ونحو ذلك ، حياً كان ، أو ميتاً . وقوله (وهو راض) جملة حالية ، فلا يدخل عيسى ، والملائكة ، وكل من لم يرض بعبادته .

ودليل كونه طاغوتاً : ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : يجمع الله الناس ، فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس ، ويتابع من كان يعبد القمر ، ويتابع من كان يعبد الطاغيت ... وما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة . وذو الخلصة : طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية . رواه البخاري

وما جاء عن عبد الرحمن بن سمرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : لا تحلفوا بالطاغي ، ولا بآبائكم . رواه مسلم
ج. من دعا الناس إلى عبادة نفسه : ولو لم يُعبد .

وهذا أغلال من الذي قبله ، لأن الذي قبله رضي بالعبادة ولم يدع الناس لعبادته ، وأما هذا فهو الذي دعاهم ، فيكون - ولابد - راض بالعبادة .

ومثاله رؤوس الرافضة ، والصوفية الذين يعظمون أتباعهم فوق الحد الشرعي ويتحذنونهم مطاعين ومتبعين دون النبي ﷺ .

(١) كما نقل عن محمد الحنفي أنه قال في مرض موتة : من كانت له حاجة فليأت إلى قبري ، ويطلب حاجته أقضها له .

د. من ادعى شيئاً من علم الغيب :

كالساحر ، والكافر ، والمنجم ، ونحوهم من يدعى معرفة الغيب .

ودليل كون هؤلاء من الطواغيت : ما جاء عن جابر قال : كانت الطواغيت التي يتحاكمون إليها ، في جهنمة واحد ، وفي أسلم واحد ، وفي كل حي واحد ، كهان يتزل عليهم الشيطان . رواه البخاري والغيب : مصدر غاب يغيب ، وهو كل ما خفي عنك . وينقسم إلى قسمين :

١. الغيب المطلق : وهو غيب الزمان والمكان ، بحيث يدعى معرفة كل شيء ، في أي مكان ، وهذا الادعاء كفر أكبر ، لأن هذا الأمر لا يكون إلا لله ، فلم يجعله الله لأحد غيره مهما كانت منزلته ، بل هو من خصائص ربوبيته سبحانه .

ولذا في حديث جبريل المشهور لما سأله عن الساعة قال (ما المسئول عنها بأعلم من السائل) .

قال تعالى ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبُ إِلَّا اللَّهُ﴾ .

وأما علم بعض الغيب سواء كان في الماضي ، أو الحاضر ، أو المستقبل ، فهذا الغيب يطلع الله عليه من شاء من رسالته .

قال تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ عَيْهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ .

فمن ادعى أن هذا الوالي يعلم كل ما في الأرض ، أو كل ما في البلد ، أو يعلم ما في الصدور ، فقد خرج من ملة الإسلام ، والعياذ بالله .

كمن يقول : لا يدق وتد في القاهرة إلا بعلم السيد البدوي .

٢. الغيب النسبي : وهو ما خفي على شخص دون آخر ، فهو بالنسبة لمن غاب عنه غيب ، لكن بالنسبة لمن حضره يعتبر شهادة . وهذا يطلق عليه غيب من باب الحجاز .

هـ . من حكم بغير ما أنزل الله :

وذلك أن الحكم من خصائص الله ، كما قال تعالى (إن الحكم إلا لله) .

ودليل كون هذا النوع طاغوتاً ، قوله تعالى (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمرناهم بتركه) .

والحكم بغير ما أنزل الله فيه تفصيل ، فتارة يكون كفراً أكبر ، وتارة يكون كفراً أصغر :

أ. كفر أكبر : إذا حكم بغير ما أنزل الله معتقداً أنه أفضل من حكم الله ، أو مساوياً له ، أو أنه يجوز الحكم به - حتى لو اعتقاد أن حكم الله أفضل - ، أو ترك الحكم بما أنزل الله استخفافاً به ، أو احتقاراً له ، أو اعتقاداً أن غيره أصلح منه ، وأنفع للخلق .

ب. كفر أصغر : إذا حكم بغير ما أنزل الله وهو يعلم أن فعله باطل ولا يجوز ، وأنه يجب الحكم بحكم الله ، ولكن فعل ذلك محابة للمحكوم ، أو خوفاً منه ، أو طلياً لرשותه ، ونحو ذلك .

و يأتي الكلام عن هذه المسألة عند شرح (نواقض الإسلام) إن شاء الله تعالى .

فائدة : ذكر المصنف هنا أن رؤوس الطواغيت خمسة ثم عدهم ، وقد عدتهم في بعض المواقع بغير هذه الصور ، وهذا يعني أن العدد غير مخصوص ، ولكن ما ذكره هنا أقرب ، والله أعلم .

قال الشيخ في موضع : والمتبين لنا منهم خمسة : أولهم الشيطان ، وحاكم الجحور ، وآكل الرشوة ، ومن عبد فرضي ، والعامل بغير علم . الدرر السنوية ج ١ ص ١٣٧ .

وفي ص ١٦٢-١٦٣ ذكرهم كالتالي : الشيطان ، والحاكم الجائز ، والذي يحكم بغير ما أنزل الله ، والذي يدعى علم الغيب ، والذي يعبد من دون الله وهو راضٍ بالعبادة .

وقوله [وافتراض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله] .

وهذا هو التوحيد الذي قال الله فيه (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : وصفة الكفر بالطاغوت : أن تعتقد بطلان عبادة غير الله ، وتتركتها ، وتبغضها ، وتکفر أهلها ، وتعاديهم .

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله : ويدخل في الكفر بالطاغوت : بغضه ، وكراهته ، وعدم الرضى بعبادته بوجه من الوجوه^(١) .

وقوله في ختام الرسالة [وفي الحديث : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنته الجهاد في سبيل الله] .

ختم المصنف رسالته بحديث معاذ الذي رواه أحمد ، والترمذى ، وابن ماجه ، وحسنه الألبانى .

وقوله ﷺ (رأس الأمر) المراد بالأمر هنا (الدين) والمراد بالإسلام هنا (الشهادتان) كما جاء عند أحمد عن معاذ قال : قال لي نبي الله ﷺ : إن شئت حدثتك برأس هذا الأمر ، وقوام هذا الأمر ، وذروة السنام ، قلت : بلى ، فقال رسول الله ﷺ : إن رأس هذا الأمر أن تشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ...

قال ابن رجب : ويعنى بالأمر : الدين الذي بعث به وهو الإسلام ، وقد جاء تفسيره في الرواية الأخرى بالشهادتين ، فمن لم يقر بما ظاهرًا وباطنًا فليس من الإسلام في شيء .

وقوله ﷺ (وعموده الصلاة) عمود الفسطاط - الذي هو الخيمة من الشعر - ما يقوم عليه ، فإن زال العمود سقط الفسطاط ، وكذلك الصلاة عمود الدين ، فلا دين لمن لا صلاة له ، وهذا مما يؤيد كفر تارك الصلاة .

وقوله ﷺ (وذروة سنته الجهاد في سبيل الله) الذروة هي أعلى الشيء .

والمعنى أن الجهاد من أعلى مراتب الدين ، وإنما كان كذلك لأنه به يحصل العلو والرفة للدين ، كما قال تعالى (ولا تهنوا ولا تخزنو وأنتم الأعلون) .

وفي الصحيحين عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله : أي العمل أفضل ؟ قال : الإيمان بالله ، والجهاد في سبيله .

هذا هو آخر هذه الرسالة المفيدة ، التي ختمها المؤلف - رحمه الله - بالصلاحة ، والسلام على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ورد العلم إلى الله سبحانه وتعالى .

نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص ، والفقه في الدين ، وأن يثبتنا على التوحيد ، آمين ، آمين .

(١) وفي الدرر : ومن المعلوم أن من لم ينكر الشرك لم يعرف التوحيد ، ولم يأت به . ص ٢٠٧ ج ٣